العدد 085 ــ يناير 2015
يصدر مجاناً مع مجلة الرافد

# الرجوع الأخير

دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة

ص.ب. 5119

هاتف: 5123333 9716+

بــرّاق: 5123303 9716+

**www.arrafid.ae**

◄ المواد المنشورة تعبر عن كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي دائرة الثقافة والإعلام

◄ وكلاء التــوزيع: دولة الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع، دبي: ت: 3916501/ 04، قطر: دار الثقافة للطباعة والصحافة والـنشر والتوزيع: ت: 414482 البحرين: دار الهلال للتوزيع ت: 534561 - 05355590، اليمن: دار القلم للنشر والتوزيع والإعلام صنعاء: ت: 272562 - 0272563، المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة «سبريس» الدار البيضاء: ت: 249200، مصر: مؤسسة أخبار اليوم: ت:5782700، سوريا: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.

# الرجوع الأخير

قصص

مجدولين أبو الرُّب

دائرة الثقافة والإعلام الشارقة

# كذب أبيض

وقَفَتْ بباب العيادة تلتقط أنفاسَها، ثم راحتْ نظراتها تبحث عن مقعد. شعرها قصير عبث به الهواء دون أن تعبأ بإعادة تصفيفه، تلبس ثوباً أزرق فضفاضاً، يندلق حتى أسفل الركبة بقليل، يُظهِرُ بطناً متكوراً.

بطنها المتكوّر كان هابطاً، في وضع يشي باقتراب الميلاد. دخلتْ وسارتْ بخطى ثقيلة. أقدامها منتفخة كما الإسفنجة، بالكاد يتسع لها الصندل. كنتُ متأكدة أن مقاس قدمها ازداد أثناء الحمل. توقَفَتْ على مقربة مني. سمعتُ صوت

لهاثها بوضوح عندما جلستْ مثل الناقة حين تبرك.

المرأة الجالسة مقابلي تقلّب صفحات مجلة دون أن تنظر إليها. على طاولة المنتصف كومة مجلات أعرفها جيداً، فهي المجلات نفسها منذ تسعة شهور، كانت أول من التقيته في العيادة بعد السكرتيرة. التواريخ عليها تعود إلى سنوات خلت، وعلى صفحاتها مئات البصمات لنساء مرتبكات أو فرحات أو ربما ضجرات، وأنا متأكدة أن ثمة بصمات لأصابع يقطر الحزن منها.

السكرتيرة خرجت من غرفة الطبيب. طلّتها ملوّنة بأصباغ كثيرة رديئة وضعتها على وجهها. صوت كعب حذائها ينقر في قلبي. جلسَتْ خلف مكتبها قرب تلفاز من طراز الستينات، يشبه صندوقاً خشبياً أعمى وأخرس، لم يعمل يوماً طوال الشهور التسعة المنصرمة. أمر التلفاز مبهم، لا أعرف إن كان يعمل أم لا، وأمر الجدران مبهم أيضاً، لطالما حاولتُ تخمين لونها هل هو رمادي أم أبيض كامس؟! وحدها لوحة مراحل نمو الجنين كانت تبدو طازجة وسط الجدار المتلبد بقتامة ما.

طقطقة شفرات المروحة المعلقة في السقف، تستفز أوتار الغضب، تشحنني برغبة في الصراخ. ألجم نفسي، وأقاوم رغبة جامحة بالانقضاض على المجلات وتمزيقها صفحة صفحة، والانقضاض على اللوحة على الجدار، وخلعها، وربما الدوس عليها أو قضمها بأسناني.

– أنتِ... تذكرتك، التقينا هنا قبل شهرين.

التفتُّ نحوها، كانت المرأة ذات الثوب الأزرق. نظرتْ باتجاه بطني، وتابعتْ حديثها بحماسة:

– كنتِ حاملاً، متى أنجبت؟

– منذ عشرة أيام.

بدت عيناها ذابلتين مثل عيني طفل على وشك أن يغفو، وعظام وجنتيها بارزة. ابتسمتْ وتابعتْ حديثها باهتمام:

– وماذا أنجبتِ؟

– صبي.

– آه... مبروك.

المرأة الجالسة مقابلي ما زالت تقلّب صفحات المجلة دون أن تنظر إليها. على مقربة مني امرأتان، إحداهما شابة تبدو منزعجة، والأخرى في منتصف العمر، تمسح شفاهها بمنديل مطويّ بعناية، ثم تسوّي غطاء رأسها، وشفرات المروحة تطقطق برتابة تشعل غضبي من جديد. ينتفض ورق لوحة مراحل نمو الجنين، ويكاد يطير عن الجدار.

تسعة شهور حبلى بالانتظار. وكأن الزمن يحبل هو الآخر. كأن له أطواراً يعيشها فينا، يحبل في أرحامنا، ويتنفس في رئاتنا. نموت ويستمر غير مبالٍ، فيتسلل من طور لآخر، ومن جسد لآخر، بخفة، كأننا مطية يمتطيها، كأننا مراكب تبحر نحو فوّهة الغياب، وهو الراكب الوحيد، ينتقل كما يحلو له، ويقتات من حيواتنا.

جفلتُ، عندما انبعث فجأة صوت بقربي، يجهش باكياً، متضرعاً بالدعاء والرجاء. اتضح لي أن الصوت «رنّة هاتف»، عندما أخرجت المرأة صاحبة المنديل المطوي بعناية هاتفها النقّال من حقيبتها، وأجابت: «السلام عليكم...».

السلام!! كم أفتقده، أكتم، أبلع وجعي، وألهي نفسي بأي شيء. أنظر نحو السكرتيرة، تجلس خلف مكتبها، تروح وتجيء على وجهها الابتسامات وهي تكبس أزرار هاتفها النقّال منهمكة بتدوين رسالة.

صوت المرأة ارتفع فجأة:

– طبعاً... ينبغي أن أضع حدّاً لأقاويلها، نعم... لا، أنا لم أتسرّع، لم يمضِ على زواج البنت ثلاثة أشهر، وبدأتْ تتقوّل عليها... اسمع، نحن في عيادة الطبيب... قلت لك... على كل حال أنا لا أفعل ذلك إلا لتغلق فمها وتكف عن اتهام ابنتي...

انخلعتْ إحدى حواف لوحة مراحل النمو. استمرّت المروحة في طقطقتها، وأسقط هواؤها الرتيب اللوحة. ظهَرَ على الجدار مربّع أبيض. بياضٌ ناصعٌ مثل الحليب فضح قتامة الجدار، رماديته، خرابه وكآبة الزمن في مساماته.

انبعث صوت طقطقة حذاء، دنت السكرتيرة نحو اللوحة ، التقطتها ووضعتها على حافة طاولتها.

– لو سمحتِ...

التفتُّ، كانت المرأة ذات الثوب الأزرق تحدّثني. ارتفع حاجباها واتسعت حدقتا عينيها، وتابعت بابتسامةٍ خجولة:

– أرجو ألّا أتجاوز حدودي، ولكن... هل... هل فعلاً الولادة أمر مؤلم جداً؟

نظرتُ في وجهها المتعب، وأجبتها مبتسمة:

– لا، لا تصغي لهنّ يهوّلن الأمر. البشر يحبّون المبالغات. ألمُها يُحتمل، مجبولٌ بفرح غريب، أظنه فرح اللقاء، فما هي إلا ساعات قليلة وتلتقين به.

وأشرتُ نحو بطنها المتكوّر.

– أين تركتِ ابنك؟

– عند جدّته.

قاطع حديثنا صوت السكرتيرة عندما نادتْ اسمي، فنهضت.

التفتُّ نحو المرأة ذات الثوب الأزرق، كانت لا تزال تنظر نحوي. ابتسمتُ لها ومضيت نحو باب غرفة الطبيب.

تعمّدتُ ألّا أخبرها أن وليدي لم يكن مقدراً له أن يعيش أكثر من أربعة أيام، تعمّدتُ ألّا أخبرها أنني هنا ليصف لي الطبيب دواءً كي يجفف الحليب في صدري.

❊❊❊

# العتمة

«طوبى لأولئك الذين لا يلزمهم حيّز من العتمة ليكونوا على حقيقتهم».

**انقطع التيار الكهربائي، وحلّ ظلام دامس غشي كل شيء، فانقشعت علامات التجهم عن وجه أحمد. رخى جسده على الكنبة، فشعر بخدرٍ لذيذ، حُرم منه منذ دخل باب هذا المنزل.**

**كفّت السيدة الجالسة في الجانب الآخر من الصالة عن الأنين، وقالت بصوت مبحوح:**

**– «زهير، يمّه، الشموع في دُرج (الكومودينا) بجانب سرير المرحوم». وأجهشت بالبكاء.**

تراءى له زهير مثل شبح ينتصب في العتمة، يهمّ بالمسير ثم يتوقف:

– يمّه، الدُّرج الأول أم الثاني.

– الدُّرج الأول.

بقي شبح زهير مزروعاً في مكانه. وفجأة أشعل ولاعة، بلهب صغير بالكاد جلا العتمة عن وجهه.

– أمتأكدة أنها في الدُّرج الأول؟

– قلت لك، في الدُّرج الأول.

سار زهير بضع خطوات. انطفأ لهب ولاعته، فذاب طيفه في العتمة لهنيهة قصيرة، قبل أن ينبعث اللهب من جديد.

تحرك اللهب الصغير مخترقاً العتمة، متجهاً نحو الممر.

لم يكن استرخاء أحمد كما يشتهي، ينقصه شيء آخر، ينغّص عليه خدره اللذيذ. الحذاء يخنق قدميه. منذ وضعه في قدميه صباحاً، بدأت سلسلة من الأحداث منعته من خلعه إلا في المسجد عند صلاة الجنازة. حرر قدميه من الحذاء، وتمادى فرفع إحداهما ومدّدها على «طربيزة» أمامه.

أرسل بصره يسبر العتمة بحثاً عن لمياء. ابتسم عندما خطر

بباله أن «سوبرمان» وحده يمكن أن يرى الجانب الآخر من الصالة، سيما وأن القمر هذه الليلة في إجازة. راح يسترجع صورة الصالة قبل أن تنقطع الكهرباء. هذه المرّة الثانية التي يدخل فيها منزل عمّها الذي كانت دائماً تتباهى به: «عمي وكيل وزارة... عمي يحلّ ويربط». وعندما أراد أن ينتقل من عمله في الضواحي إلى المدينة، قالت له لمياء: «لا تهتم سأكلم عمي». لكن الأمر كان واضحاً، فعمّها الذي تقاعد منذ عشرين سنة، لم يبق من هيبته إلا ماضيه، ولم يعد قادراً على الحل ولا الربط، ولم ينتقل أحمد إلى المدينة.

ترحّم أحمد على عمّ زوجته، عندما تذكّر المبلغ الذي نقدها إياه في حفل الزفاف. كان بالفعل كريماً. وحلّ لهما مشكلة شهر العسل، أو بالأحرى ثلاثة أيام من العسل في منتجع البحر الميت. لولا ذلك المبلغ لما تحمّلا نفقات شهر العسل، فكانت أول زيارة قاما بها، إلى منزل عمها اعترافاً منهما بفضله. في الزيارة الأولى، فاجأه المعمار الخمسيني للمنزل، الحجر الورديّ، الأبواب الطويلة، النوافذ التي تفتح بمصراعين، أرضيّة الصالة ببلاطها المنقوش على شكل سجّادة بزخارف ملوّنة. وتعجّب من الكنب المنجّد ذي الأيدي والأرجل الخشبية الطويلة، محتفظاً بهيئته، وكأنه ابتيع بالأمس من متجر أثاث خمسينيّ. في تلك الزيارة أمسك نفسه عن الضحك عندما شاهد الهاتف الأسود ذا القرص، وساعة الحائط المزعجة عندما دقّت ثماني دقّات. أقبل عمّها يمشي بمساعدة

عكاز مرتدياً «روب ساتان»، وجلس واضعاً قدماً على الأخرى.

حاول أن يستمتع بلحظات لم يعرف كم ستطول، قبل أن يعود زهير محمّلاً بالشموع. التقاه مرتين، وفي المرتين كان يبذل مجهوداً في مجاملته، شاب سَمِج لا يختلف عن أي سَمِج آخر، مغرور وفارغ، يتحدّث من رأس أنفه، وبين الرجال لا محضر له، لكن مع ذلك صار مديراً، وفي موقع مهمّ، ولم يمضِ على تعيينه بضع سنوات. كيف؟!

وفجأة أنزل أحمد قدمه عن «الطربيزة»، لهول اكتشافه: «لقد كنتُ مخطئاً، عمّ لمياء يمكن أن يحلّ ويربط، ولكن عندما يريد! أو ربّما قبّل الأيادي من أجل ابنه السَمِج!!». وراح يتفقّد اللهب الصغير، الذي كان يقود زهير عبر الممر المنبثق عن الصالة، شاهده يتوقف للحظاتٍ، توارى بعدها في إحدى الغرف.

نظر أحمد حوله، بالكاد شاهد أشباح الجالسين قربه من أزواج بنات المرحوم، وبعض الأقارب من الدرجة الأولى، الذين جاءوا لتعزية زوجة العم، واصطحاب زوجاتهم، كما هو حاله. لم يتمكّن من رؤية طاولة الطعام الذي بقي في الأطباق على حاله. فعندما حاولوا حمل السيدة على تناول العشاء، أشاحت بوجهها عنه، وهي تضع منديلاً على أنفها باكية. عندها لم يجرؤ أحد على أكل لقمة واحدة. وتناثرت عبارات هنا وهناك: «من له خاطر بالأكل؟»، «اللّه

يكون في عونها»، «من يقدر أن يضع لقمة في فمه؟!»...

كانت لمياء تجلس في طرف المجلس، تعطي الصدارة لزوجة عمها وبناته. هرعت إلى المنزل صباحاً فور سماعها نبأ وفاة عمها، وحثّت زوجها أحمد كي يأخذ إجازة من عمله، ويوصلها إلى منزل عمها، ويقوم بالواجب.

لم تتفاجأ، فأمّها أخبرتها، عبر الهاتف، منذ أسبوع، أن حال عمها الصحي لا يسُرّ، وأن خبره إن لم يكن اليوم فسيكون غداً. وما إن وضعت سماعة الهاتف، حتى هرعت إلى أحمد ليصطحبها إلى السوق. حرصت على شراء حذاء أسود جديد، وأخبرت أحمد أن أهمّ شيء في بيوت العزاء عند الناس الراقين هو الحذاء. تحرص كل امرأة على وضع رِجلٍ فوق الأخرى لتستعرض أناقة وفخامة حذائها. الحذاء يصير سفيراً في تلك المناسبة. بعضهن وعندما تضع قدماً فوق الأخرى تكاد قدمها ترتفع بمستوى الوجوه. وأخبرته أن معارف عمها ناس «فوق كثير»، وهي لا تريد أن تبدو أقل من الأخريات. كما أنها لا تريد أن تسيء إلى مكانة عمها، ولن تجلب له النقاصة حيّاً أو ميتاً.

***

عندما مرّ شبح زهير وسط الظلمة، كاد يتعثر بقدم لمياء الجالسة في طرف المجلس، واستطاع عبر الضوء الشحيح المنبعث من لهب

ولّاعته أن يميّزها، فأشاح وجهه باشمئزاز. ومضى يتحسس موطئاً لقدمه في عتمة الممرّ، وهو يفكر: «المجنونة، من عقلها تمدّ يدها لتسلم عليّ معزّية، تحلم! تركتُ يدها الممدودة، أمام الناس جميعاً، تجاهلتها، ومضيتُ بكبرياء».

«اليوم، اضطررتُ أن أراه، بعد كل تلك السنين. لكنه ما زال مغروراً وحاقداً. الناقص، أمدّ يدي للسلام عليه، فيتجاهلني ويمضي». وسألت لمياء نفسها بملامة: «لماذا كنتُ أبيتُ في منزل عمي، عندما كنتُ في عزّ الصبا؟»، وأكملت في سرّها: «أبواب التسلية كانت قليلة، وأحدها أن أبيت عند دار عمي. نلهو أنا وصبا ابنته. تعجبني ملابسها التي لم أشاهد مثلها، وعطورها التي لم يشمّها أنفي من قبل. وكان عمي يغدق علينا أصناف الحلوى، ويصطحبنا في رحلات، إلى أن جاءت تلك الليلة، كان الجو حاراً، صحوتُ عطشى، وعندما دخلتُ المطبخ لأشرب، وجدته هناك. لم أعرف أنه في الداخل وحده، حشرني خلف الباب وحكّ جسدي بجسده. قلتُ له: اتركني. وهدّدته أنني سأخبر عمي، ابتسم كأن الأمر لا يعنيه، وقبّل عنقي قبل أن أتمكن من الإفلات منه، وأنا أصرخ. كانت تلك آخر ليلة أبيتها في منزل عمي. لكنّ النذل تمادى اليوم، رغم مصابه. كيف أمد يدي للتعزية، فيهينني».

***

تحسس زهير الحائط بيده، وعلى هَدْي اللهب أمسك مقبض

الباب. وقف متردداً، لم يمض على دفن والده إلا ساعات، وها هو يدخل غرفته وحيداً، وفي الظلام. «ماذا لو كانت الروايات التي يتناقلها الناس عن الأرواح صحيحة؟! لو كان، مثلاً، يتمدّد في سريره وينظر إليّ، ماذا عساي أفعل؟».

رفع رأسه عالياً، وأخذ نفساً عميقاً، فاتسعت فتحتا أنفه، وهمس: «لم أكن أخشاه حيّاً، فكيف أخشاه ميتاً؟».

فتح الباب. كانت الغرفة غارقة في العتمة. تقدّم باتجاه السرير، كان يرفع يده بالولاعة أمام وجهه، محاولاً أن يحدّد موقع (الكومودينا). شعر بأنه ليس وحده في الغرفة، فتسمّر في مكانه.

أحسّ بنفحات جسدٍ آخر خلفه. لكنّه سرعان ما طرد مخاوفه، مقنعاً نفسه أن هذا الهاجس مجرّد وهم. تناهى إلى سمعه صوت والدته، تسأله عن الشموع. تلاه صوت دقات الساعة في الصالة، تعلن انتصاف الليل. تقدّم خطوة، فعاد إليه الهاجس أقوى من السابق، «ثمة أحد في الغرفة».

توقّف، وكاد قلبه يتوقف معه. فمٌ ينفخ أنفاسه خلفه، نفخة قوية لامست عنقه، وأطفأت اللهب الصغير. وحده مع طيف أبيه الميت يغرقان في العتمة، ندت عنه صرخة قوية، وعلت الأصوات في الخارج، تتساءل: «خير إن شاء الله خير، زهير، ما الأمر...؟». تدافع الجميع في العتمة متجاهلين اصطداماتهم العفوية

بعضهم ببعض وبالأثاث. تعالت الهمهمات وأنين السيدة واختلطت بدقات الساعة.

انتعل أحمد حذاءه، وتردّد، هل يلحق بهم، أم يبقى مسترخياً، ما الذي يمكن أن يحدث لهذا الشاب «السمج»؟! وبقي في مكانه داعياً ألّا يطول مكوثه هنا.

في اللحظة التي كان يتدافع فيها الموجودون عند باب غرفة المرحوم، عاد التيار الكهربائي، وسطعت الأضواء قوية في الصالة والممرّ. سارع أحدهم لمفتاح الضوء، فعمّ الضوء. كان زهير يقتعد الأرض ورأسه بين ذراعيه. أمسكت أخته برأسه ورفعته. وجهه شاحب. والأسئلة تنهمر عليه: «ما لك؟ شو في ؟ إن شاء الله خير؟ خوّفتنا عليك، ماذا حدث؟ لماذا صرخت؟».

ظلّ زهير مقتعداً الأرض، يحدّق في الوجوه صامتاً. لحظات مرّت قبل أن ينطق، بصوت خافت: «لا شيء، لكن الحزن عصر قلبي عندما شاهدت سرير والدي، لا أظنني قادر على تحمّل غيابه». وأطرق رأسه.

ساعدوه على النهوض، وعادوا للجلوس في الصالة. بقي صامتاً شارد النظرات، رغم محاولته أن يبدو طبيعياً. دقائق وبدأوا يغادرون معزّين ومودّعين، كان زهير يسلّم على المعزّين، وبالكاد تحمل قدماه جسده، مستقبلاً كلماتهم، دون أن يدرك ما يقولون.

سُرّ أحمد لأن أحداً لم يضبطه وهو يتنفس الصعداء. وحاول أن يزاحم الموجودين في تقديم التعازي، حتى لا يطول مكوثه أكثر. كاد يشهق، لكنه تدارك نفسه عندما لا حظ أن بعض أطباق الطعام على المائدة تم غزوها بشكل لافت. وغضّ النظر.

قاد سيارته بحماسة من يريد أن يبتعد عن السجن بعد الإفراج. حتى لمياء، رحمته من ثرثرتها وبقيت صامتة. كانت ترتسم على وجهها ملامح الرضى، وهي ترسل نظرها عبر نافذة السيارة، وعلى شفتيها ابتسامة غامضة. لم تكن تدرك سابقاً أن نفخة من فمها يمكن أن تثير هلع ذلك المُختال.

***

# الرجوع الأخير

لا أعرف أين تخفي المفتاح عني. أحاول أن أغافلها عندما تكون مشغولة بتنظيف المنزل، فأبحث عنه، لكنني لا أجده. ولا أدري لماذا تحبسني هذه الملعونة، ولماذا يطاوعها عارف؟!

لقد طال بقائي هنا، ينبغي أن أروّح. لا بد أنّ والدي قلق لغيابي. ويعلم الله كيف يتدبر أموره.

أمي لم تعد قادرة على المشي بشكل طبيعي منذ كَوَتْ رُكبتها المتورّمة، وألحَقَتْ الكيّ بـ «كاسات الهواء»، ولم تتحسّن. يصطحبها والدي

إلى مستشفى «المسكوبية»* صباح كل اثنين، ويشتري لها خصّيصاً السمك الطازج الذي يصل صباح كل جمعة بالقطار من يافا إلى حانوت قريب من باب الخليل، لعلها تشفى.

مللتُ الجلوس هنا. أتمنى لو أجلس على الشرفة، لكن الملعونة ترفض أن تفتح الباب. أين منها شرفة منزل عمي أكرم في «القطمون»، أقواس من الحجر الأبيض الموشّى بزخارف حمراء ووردية، تطلّ على حديقة تحارُ فيها العين إلى أي الأزهار تنظر. حدائق منازل «القطمون» تبهج القلب بأزهارها.

عندما يزورني عارف، سأطلب منه أن يضعني في سيارته، ويأخذني إلى «الكراج»، وهناك أتدبّر أمري، أنا أعرف جيداً أين تقف السيارات الذاهبة إلى القدس.

ذهبتُ مع أختي إلى شارع صلاح الدين، واشترينا «كنزة» لعارف. أردتُ أن يتباهى بها أمام الطلاب والطالبات في الجامعة، اخترتها من صوف ثقيل، ما أدراني كيف هو برد بيروت...؟ المهم أنّ تخرّجه اقترب، وطلبتُ من والدي أن يفصّل له بدلة من الجوخ الإنجليزي.

عندما يأتي سأسأله عن «الكنزة» والبدلة، لا أراه يرتدي أيّاً منهما!! سأسأله أيضاً عن الصورة التي التقطها لنا «كريكوريان» الأرمني، أنا وهو وأختي. يومها كويتُ شعري، وارتديتُ فستاناً من

المخمل الخمري، كنت مثل أسمهان في فيلم «غرام وانتقام».

سأخبر زوجته أن تنتبه إليه جيداً، فهذه الملعونة تحاول أن تتقرّب منه. كلما يزورني تترك أعمالها وتسرع حاملة فنجان قهوة له، ولا تتركه. تمسك السُلّم وتتناول منه «اللمبة» المحروقة، وتناوله «لمبة» جديدة. هذه المرأة تريد أن تسرق عارف من زوجته. وتتحدّث إليه بالإنجليزية كي لا أفهم.

في زيارته الأخيرة، وأثناء تبديله لـ«اللمبة»، قلتُ له أن يعيدني إلى بيتي، وألححتُ عليه لأنّ لي قياساً عند الخيّاطة بديعة، قلتُ له إنني تأخّرت عليها كثيراً. والإنجليز يمنعون التجوّل... ووالدي تعب من اصطحاب أمي في مراجعتها للمسكوبية، أريد أن أريحه وأصطحبها بنفسي.

***

منع التجوّل، الخيّاطة بديعة، دراسة خالي عارف في بيروت، أسواق القدس، وعشرات التفاصيل، اعتادت أمي أن تستحضرها وتخلطها خلطاً عجيباً، وكأنها تمزج الزمن والأشخاص والأماكن، وتخُضّها في إناء أفكارها، فتبعثر الماضي على درب الحاضر، وتتدحرج الأيام إلى الوراء، ويطلّ شخوص، ماتوا منذ زمن، تبعثهم بيننا!!

اعتدتُ أن أزورها مرة في الأسبوع، مشاغلي كثيرة ولا متسع

من الوقت لديّ، حتى زوجتي تشكو من قلة رؤيتها لي. تقاسمتُ أيام الأسبوع مع أخواتي لزيارتها، ووظّفتُ لها خادمة كي ترعاها.

من كان يتخيّل أن إنساناً يمكن أن تصيبه السعادة، بمجرد أن تعرفه أمّه وتتذكّره!!

هذه السعادة نادراً ما تنتابني، فهي لا تناديني إلا عارف. تناديني باسم خالي الذي توفي منذ خمس سنوات. ربما أشبهه في شبابه!

أشعر بالعجز أحياناً، ولا أعرف كيف أتعامل معها، فهي تارة أمي، وتارات أختي!! وتعيش في بيتها في عمّان مرّة، وفجأة، يناديها بيت آخر، بيت أبيها في القدس، فتلحّ فتستروح، وتلحّ عليّ أن آخذها إلى بيتها. البيت الذي عاشت فيه قبل أكثر من خمسين سنة. حيّرني انبعاث الأموات أحياء، وطلعة البيوت القديمة. ونكران بيتنا، بيت أبي الذي عاشت فيه بضعة عقود، باتت لا تربطها به أيّ صِلة أو ذكرى، انمسحت العقود الأخيرة من ذاكرتها، وانبعثت عقود عمرها الأولى، طفولتها وشبابها المبكّر، وعلِقت في تلك المنطقة من الزمن، تعيشها كأنها زمنها الآنيّ.

ذات يوم زرتها، كانت تجلس وقربها حقيبة سفر. نهضتْ بمجرد أن رأتني، وبادرتْ بالقول: «أنا طوّلت هون، ينبغي أن أروّح، والله أبي يستعوقني، وأكيد هو قلق عليّ... هيا أوصلني إلى

الكراج، وأنا بعرف أروّح... أرجوك... سأدعو لك في الأقصى».

حاولت إقناعها أن هذا بيتها، وأن أباها مات منذ زمن بعيد، وأنني ابنها، لكنها نهضتْ وحملتْ حقيبتها واتجهتْ نحو الباب: «بروّح لحالي، أنا بعرف الطريق...».

وقفتُ بينها وبين الباب، وأخذتُ المفتاح وخبّأتُه، فركضَتْ نحو النافذة وراحت تصرخ: «أنقذوني، يا ناس، أنقذوني...». احترتُ ماذا أفعل، رجوتها أن تصمت، أن تبتعد عن النافذة، ولم تفعل إلا بعد أن تجمّع الجيران في المنزل. وبشيء من العتب، جاء السؤال الثقيل: «ما بالها الحجّة، مين مزعلها...»، لكنهم توقفوا عن طرح الأسئلة عندما صرختْ وهي تشير بإصبعها نحوي: «هو يحبسني في هذا البيت، لا أعرف لماذا»، ثم صمتتْ، وأخذتْ نفساً عميقاً ، وتابعتْ بصوت منخفض: «أنا طوّلت هنا، عندي قياس عند الخياطة بديعة. قرّب عرس ابن عمي أكرم، وأبي أكيد مشغول البال لغيبتي...».

***

انشغال البال والنوم لا يلتقيان. هذه ليلة صعبة، لا أستطيع أن أنام، ولا يمكنني أن أصل إلى قرار.

من الصعب أن أقبل.

ومن الصعب أن أرفض!!

منذ ما يقارب السنتين وأنا أعيش مع صوت التلفاز، وصراخ العجوز عندما تصيبها حالات غريبة، فتفتح النافذة، وتصرخ بأعلى صوتها: «النجدة... أنقذوني...». لم أفهم لماذا تستنجد، وتطلب من ينقذها؟، لكن ابنها قال لي إنها مسكينة ومريضة، نسيتْ حياة اليوم وتعيش حياة الماضي البعيد.

أكنس وأغسل وأنظف المنزل وأطهو، وأراقبها. تدخل الغرف واحدة تلو الأخرى، تجلس أمام التلفاز وتعود للتنقّل في المنزل مثل لبؤة عجوز يضيق بها القفص. أوصاني ابنها ألّا أدعها تقترب من الشرفة، قال: «أمي مثل الطفل، أخشى أن ترمي نفسها عن الشرفة».

لم يبقَ سوى شهرين وتنتهي خدمتي هنا. ترى هل سيجدون خادمة تفهم ما يحدث، وتسيطر على تصرفات العجوز المتعِبة؟

ابنها سألني ألّا أسافر، لأبقى مع والدته، وعرض عليّ، في حال موافقتي، أن يزيد أجري الشهريّ خمسة وعشرين دولاراً.

هو يعاملني جيداً، وأخواته كذلك، وهذا ما يجعل الأمر أكثر صعوبة. ويجعل نومي بعيداً.

من الصعب أن أقبل...

ومن الصعب أن أرفض!!

كيف أرفض قلادة من الذهب، ربما تبلغ قيمتها ألف دولار، عرضتها عليّ العجوز اليوم كي أدعها تخرج من المنزل؟!!

## * تنويه:

– الألفاظ التالية تخصّ مدينة القدس قبل النكبة، أي قبل العام 1948:

– المسكوبية: مشفى من مشافي القدس.

– باب الخليل: اسم أحد أبواب القدس.

– حي القطمون: من الأحياء الجديدة التي نشأت في الضواحي، خارج الأسوار.

– شارع صلاح الدين: شارع رئيسي وحيوي في القدس.

– كريكوريان: مصوّر أرمني ذاع صيته آنذاك.

❊ ❊ ❊

# المكوى

أكره الكيّ، خاصة كي البناطيل، وعلى وجه التحديد البناطيل الرجّالية التي لها كسرات. لا أتقن طيّ الكسرة وكيّها، أجاهد كي لا ينحرف خط طيّها، كي لا أشوّهها بدل أن أهذّبها.

بناطيل زوجي كلها لها كسرات تنسدل من الخصر إلى الأسفل. منذ خمسة وعشرين عاماً يرتديها ويقول إنها تجعله يبدو أكثر رشاقة، وتريح حركته. وأتساءل: كيف له أن يجدها متوفّرة في الأسواق على مدى هذه السنوات، رغم تبدّل «الموضة» واختفاء «موديلات» وظهور أخرى!!

أكره الكيّ، وأستعين بالله على بناطيل «أبي العبد»، ثم ابننا «العبد» الذي ما إن شبّ وصارت قامته بطول قامة أبيه، حتى بات لا يرتدي إلا بنطالاً بكسرات هو الآخر، مع فارق أن «أبا العبد» يشدّ حزام بنطاله تحت كرشه، بينما يربط «العبد» حزامه على بطنه، وأخمّن أنه يمرّ بسُرّته، وربما فوقها بقليل، وأخمّن أيضاً أن حبله السُريّ كان مربوطاً بأحشاء أبيه، وكأنني ما حبلت به يوماً.

أكره الكيّ. أكره التحضير له منذ انخلع «جحش» الكيّ. في البداية ارتخت براغيه فشددتُها بالمفكّ بضع مرات حتى لم يعد هذا الشدّ ينفع. «انطعجت» قوائمه، عدّلتها، فانثنت، ثم عدّلتها، فانكسرت. «أبو العبد» اتهمني بالإهمال، وصرتُ أفرد «شراشف» على طاولة الطعام، وأتأكد أنها «شراشف» ملساء لا ثنيات فيها، كي لا يَطبَع المكوى تلك الثنيات على الملابس، فتبدو مثل خطوط لامعة مضروبة بعشوائية هنا وهناك. ولا يظنّن أحد أنني لم أطلب من «أبي العبد» أن يأخذ بناطيله هو وابنه إلى الكوّى، فكان يهزّ رأسه بعتب ويجيبني: (هذه تكاليف زائدة يا «أم العبد»، مش مستاهلة ندفعها للكوّى).

عندما تزوّج ابني «العبد»، وسكن وعروسه معنا في المنزل، استبشرت خيراً في هذه الكنّة. لم أكن قليلة الذوق، صبرتُ حتى مرّ شهر، رفعتُ من الغسيل الجافّ الملابس التي تحتاج إلى كيّ، وطلبتُ منها، ليس كما تطلب الحموات، ولكن مثلما يطلب الشركاء،

وبغاية اللطف، طلبتُ منها أن تكويها، فدفعتْ يدي برفقٍ وهي تبتسم: (عمّتي... شو ما بدّك بساعدك: الطبخ، الغسيل، تنظيف المنزل، أي شيء إلا الكيّ، أنا لا أحبه، أكره الكيّ).

مرّت شهور، ولاحظتُ أن «العبد» صار يخفض حزامه، ليفسح المجال إلى راحة كرشه الفتيّ. ولا يظن أحد أنني بقيتُ ساكتة، كنت ألمّحُ لأبي العبد إلى أن كنّتي لا تساعدني في الكيّ، لم يدعني أكمل حديثي، وانهالت عليّ كلماته الغضبى: (خافي ألله يا «أم العبد»، البنت مش مقصّرة، وبعدين لا تنسي هذه بنت متعلمة وموظفة، خفّي عنها...).

أكره الكيّ وأستصعبه، نقلُ التراب ورصف ممرّات الحديقة كان عليّ أهون، أذكر عندما سكنّا هذا المنزل وأردنا زراعة الحديقة، لم تكن هناك حديقة، بل أحواض جرداء تلطّخها بقايا أسمنت البناء، أحضر «أبو العبد» نَقْلة تراب أحمر، فرّغها القلاّب بباب المنزل، وكان عليّ أن أملأ «القُفّة» بالتراب الأحمر، وأفرّغها في الأحواض، أملى عليّ «أبو العبد» تعليماته بنقل التراب وذهب إلى عمله.

المكوى يكره يدي. لا يستجيب لها، صار ثقيلاً، يجري بصعوبة على الملابس، ويتعمّد أن يسبّب لي المشاكل، وصار حبله يضمر ويقصر، ففي غمرة دفعي له على الملابس روحةً وإياباً، كان الحبل ينشدّ ويحدّ من حركة يدي، أكاد أجزم أن حبله يقصر مع مرور الأيام،

بل صار بعد انشداد الحبل يفلت من قابس الكهرباء.

المكوى جنّ، صار يرفع حرارته ويخفضها كما يحلو له، مرّة يلغي الكسرات ويسويها مع باقي القماش، ومرّة يبتكر كسرات لم تكن موجودة. يلوّن الملابس كما يحلو له، بنطال «أبو العبد» الأسود ظهرت عليه خطوط لامعة كأنما عَبَرهُ شِهاب لا مستقر له في ليلة ظلماء. وبنطال «العبد» العسليّ صار موشّى بخربشات سوداء ارتبكتُ لرؤيتها، فرفعتُ المكوى ثم قلبتُه، لأشاهد على صفيحته غزواً من خُدوش، تشبه التشققات في باطن كفّي.

قال لي «أبو العبد»، وهو يصبغ شاربه إنه بات يشعر بالخزي من هندامه، وإنه يستحي أن يظهر أمام الناس. واتهمني: (لم تعودي تكوي بذمّة). خطر ببالي وأنا أنظف فرشاة الصبغة والطبق الخاص بها أنّ «أبا العبد» يتبرّج، من قال إن الصبغة لا تُعدّ تبرّجاً، وفطنتُ إلى أنني لم أتبرّج في حياتي إلا يوم زفافي!!

الملابس صارت تُرسل إلى الكوّى، حرصاً على هندام «العبد» و«أبي العبد» بعد أن كدتُ أنا، وهذا المكوى البائس، نتسبّب لهما بالحرج والخزي أمام الناس.

«أبو العبد» رفض أن يستغني عن المكوى، وقال إنه قد ينفع في المستقبل، وقد يصلِحُه.

المكوى مركون في الخزانة أسفل «البوفيه».

وأنا... كم أكره الكيّ، كيّ قلبي الذي لا أقدر أن أمسكه، ولا أعرف سبيلاً كي يبرُد. لفحات من كيّ تهب على صحاف قلبي، والكثير الكثير من الكسرات، أقصد الانكسارات.

❊❊❊

# بانتظار الخميس

سريعاً استعرضت الملابس المتراكمة في الخزانة، نتشت «بلوزاً» أخضر، وفكّرت: «هذا البلوز يناسبه بنطال بنيّ اللون»، ثم راحت الملابس تنهال على الأرض قطعة وراء الأخرى، لكنها تذكرت فجأة: «بنطالي البنيّ في الغسيل». اختارت بنطالاً أسود و«بلوز» أصفر، ثم انتبهت: «ياقته ذات حفرة كبيرة وتحتاج إلى قطعة ملابس تحتها لتستُر صدري».

أمسكت «بلوزاً» آخر: «هذا لبسته أمس، وهذا بحاجة إلى كيّ». تردّدت ثم أسرعت بارتداء ثياب

الأمس نفسها، متمنّية لو أن للجامعات زيّاً موحّداً مثلما المدارس، أو أن تكون الخزانة كلها لها، بدل أن تحشُر ملابسها كلها على رفٍّ واحدٍ مخصّص لها، حينئذ لن تعاني حيرة الصباح هذه.

من خلف الباب، جاء صوته بهدوئه المعتاد: «دالية أنا تأخرت عن عملي، أسرعي، يجب أن ننطلق خلال خمس دقائق».

تناولتْ المشط، وحدّقت بالمرآة بامتعاظ: «يا ألله! البارحة غسلتُه، الشَّعر الزيتيّ مُشكِلة، لا يبقى نظيفاً لأكثر من يوم». واستدركت: « حتى الحجاب لن يحلّ مشكلتي، له متطلبات كثيرة، صار يتطلب عدة قِطَع لغطاء الرأس بألوان عديدة، وهذا يليق بذاك وهذا لا يليق، ومرة حجاب منشّى، ومرة دبابيس وبروشات، وعَصْبات ملوّنة، ومزركشة، وملاقط منفوشة تحت الحجاب لتعطي هيئة شعر كثيف».

على عجل عقصتْ شَعرها بهيئة ذيل فرس. تناولتْ حقيبتها، وهرولت لتلحق بوالدها. ثم ما لبثت أن عادت إلى الغرفة وبحركة خاطفة تناولت كتاب مسرحية «الملك لير» عن المنضدة.

المسافة من بيتها إلى جامعة اليرموك ليست بعيدة، لكنها تحب أن تركب مع أبيها صباح كل أحد، اليوم الوحيد المتاح ليوصلها بسيارته. ثم يكمل مشواره من إربد إلى عمّان.

فور وصولها إلى بوابة الجامعة لمحت زميلتها سارة، حيّتها

بإشارة من يدها، وشعرتْ بفرح مباغت لأنّ سارة وغيرها سيعرفون أنّ لها أباً يهتمّ بأمرها. ثم فكرتْ: «نشيطة سارة، قادمة من عمّان ووصلنا معاً». قبّلتْ والدها على عجل وترجّلت. كانت سارة تحدّق بسيارة والدها التي تحركت مبتعدة.

«صباح الخير»، لكن سارة لم تردّ تحيتها، أشارتْ نحو السيارة التي ابتعدت، وقالت باستغراب: «هذا جارنا أبو راجي، ما الذي أتى به إلى إربد في هذا الوقت؟».

قاطعتها دالية: «هذا والدي، واسمه أبو راجح وليس أبو راجي، يعني يا حلوة أخي اسمه راجح، وليس راجي».

لكنّ سارة قالت بصوت مفعم بالثقة: «دالية، نحن نقطن العمارة نفسها في عمّان منذ سنوات. زوجته موظفة، ولا تخالط أحداً من الجيران، وابنه راجي يلعب دائماً مع أخي ويأتي عندنا أحياناً».

ضحكت دالية، وقالت بأسلوب معلّم يؤكّد معلومة لطلّابه: «أظنك مشبّهة عليه، فوالدي يعمل في عمّان منذ ثماني سنوات ، ويبقى هناك من صباح الأحد ليعود إلينا مساء الخميس، ربما هو يشبه جاركم أبو را...»، قاطعت سارة حديث دالية: «لكنّ السيارة نفسها، وهو مدير شركة لوكالة كهربائيات، اشترى والدي عدة كهربائيات من الشركة التي يديرها أبو راجي».

اختفت نبرة التوكيد من صوت دالية، وقالت بانفعال: «هذا فعلاً عمل والدي في عمّان، لكنه يقطن هناك وحده، يعني عازب، ربما اختلط عليكم الاسم، تلفظونه بطريقة خطأ، هناك شبه أكيد، لأن الاسمين... يشبهان بعضهما... أنتم تخلطون... ».

أحسّت دالية بارتخاء في قدميها، فجلست على الرصيف. ظلّت صامتة تحاول أن تستعيد رباطة جأشها. فطنت سارة فجأة: «أي موقف هذا الذي وضعت دالية به، يا لغبائي، ما لي وله إن كان أبو راجي أو أبو راجح ». شعرتْ بالندم لأنها استرسلت في كلامها دون أن تقصد أن تنبش سرّاً ، لم تكن تعرف أنّ في الأمر سرّاً.

لم يكن الاعتذار ممكناً، ومع ذلك حاولت سارة، فتلفظت بجُمل جعلتها تبدو كالبلهاء: «دالية لا تأخذي كلامي على محمل الجدّ، أكيد أنا مخطئة، وفهمي للموضوع غير دقيق... انهضي، هيا قبل أن تفوتنا المحاضرة ».

لم تعرف دالية كيف كانت تدخل قاعة محاضرات وتخرج إلى أخرى، لم تدرك كلمة مما قاله أيّ من أساتذتها، كانت تجلس في كل محاضرة جسداً غائب الذهن، يتبعُ الأجساد الأخرى عندما تنهض وتتدفّق خارج بوّابة، أو تدلف بوّابة جديدة. لم تجلس مع زميلاتها في ساعة الفراغ كما اعتادت، واتخذت لنفسها مكاناً قصياً تحت شجرة خلف مبنى اللغات. ما كانت لتقدر أن تقول

شيئاً، أو تجمع أفكارها حول شيء محدّد، كانت فكرة زواج والدها في عمّان تصنع غمامة تشلّ تفاعلها وتغشي إدراكها.

مرّت الأيام ثقيلة؛ ثلاثة أيام كان الدهر فيها يتمطّط ويماطل.

بانتظار الخميس، يُعدّ إخوتها طلبات مفرحة ليلبّيها الأب. وتتمنى دالية لو أنها أصغرهم، لا أكبرهم.

الأم تعدّ الطعام وترتّب بعض الالتزامات والزيارات التي ستقضيها مع زوجها.

دالية تنتظر الخميس، لأنّ حملاً ثقيلاً يسحقها، سترتاح منه في ذلك اليوم. فكّرت أن تخبر أمها، لكنها وقعت في قبضة الحيرة، هل تخبرها أم تكتفي بمواجهة أبيها؟ تلك المواجهة قد تزيد الأمر سوءاً، سواء أنكر أو اعترف، ومع ذلك لا بد منها.

شعرت دالية بأنها تجرّب «الهمّ» لأول مرّة في حياتها، ذلك الذي كان يتحدّث عنه الكبار دون أن تُدرِك ماهيّته. وكان السؤال في أعماقها ينوح، ويبقى مكتوماً وسط دموعها التي كانت تخفيها عن أمها وإخوتها: «كيف تمكّنْتَ من هذه الخديعة يا أبا راجح؟؟!

صفحة وجهك تفيض بالوداعة، هدوؤك أسطوريّ، رايق ومسالم، حتى صوتك يحمل ملامحك، كنت أرى صفحة وجهك بلّوراً يشف للرائي عن أعماقك، انكسرتْ تلك الرؤية الآن، ولا أدري لماذا أنتظر

الخميس؟ لن يكون لانتظاري معنى دون مواجهته».

سمعتْ صوت إخوتها يهلّلون لقدوم والدهم، أما هي فأسرعت إلى سريرها متظاهرة بالنوم. سمعتْ صوته بباب الغرفة: «دالية، انهضي نوم المغرب يضرّ بالصحة، تعالي اجلسي معنا...»، غمغمت بصوت تعمّدت أن تطليه بأمارات النُعاس: «طيّب، بعد قليل آتي...». استجمعت قدرتها لتبدو طبيعيّة، وجلست نصف ساعة مع العائلة لم تتمكن خلالها من التحديق في وجهه لأكثر من ثوانٍ، لتشيح بوجهها متظاهرة بمراقبة شاشة التلفاز».

من مساء الخميس وحتى صباح الأحد، كانت دالية تهمّ بمحادثة أبيها، لكنّ الفرصة لم تسنح، لم يجمعهما مجلس وحدهما، هذا ما أقنعت به دالية نفسها، لكنها تحاشت الخروج معه صباح الأحد بحُجّة أن أستاذ المحاضرة الأولى اعتذر عنها.

اكتفى بابتسامة وقبلة على خدّها، وغادر إلى عمّان.

شعرت ببركان يتأجج بداخلها، وتساءلت: «كيف لهذا الشخص الهادئ الطباع، ذي الوجه الرائق والصوت الناعس، الوديع اللطيف، كيف له القدرة على كل هذه الخديعة؟».

في مسرحية «الملك لير» يقول شكسبير: «سينشر الزمن ما طوته الخديعة»، هذا الوعد الشكسبيري سلاح ذو حدين، فمع تحقُّقه

نجد طرفاً فرحاً، والآخر مخزيّ حزين، لكنّ خديعة والدي التي نشرها الزمن قبل أسبوع، بعد ستره لها ثمانية أعوام، نشرُها مؤلم محزن للجميع... ماذا لو تمكّنتُ من تجاهل ذلك، والاستمرار كأن لم يكن هناك ستر انفضح، وخديعة انكشفت؟!».

لكنّ دالية قرّرت أن تواجهه يوم الخميس القادم، وليكن الطوفان، فهذا الهمّ أثقل من أن تحتمله وحدها.

هلل الأولاد لقدومه، وقابلته دالية محاولة أن تبدو على طبيعتها، وجلستْ مع العائلة، لكنها طوال إقامته معهم، كانت تغرق في تأملاتها:

«ترى كم من الناس يعيشون متظاهرين أنهم لا يعلمون، مع أنهم يعلمون؟ ربما يضطرّ بعض الناس إلى ذلك. لماذا لا أدع الزمن ينشر ما طوته الخديعة في زمان ومكان آخرين، ومع أشخاص غيري؟

لكن، هل أقدر على أن أترك أمي غارقة في الخديعة وهي لا تعلم؟ هل أتركها سعيدة بإعداد أصناف الطعام يوم الخميس، والتبرج بشكل استثنائي احتفاءً بقدومه؟

لن أنغّص على إخوتي قوائم الطلبات التي يعدّونها ليوم الخميس، وتهليلهم واحتفاءهم به. لو أقدر أن أترك صورته كما هي في أذهانهم دون أن أكشف لهم تشوّهات الخديعة فيها!».

صباح الأحد، نزلتْ من سيارته أمام بوابة الجامعة، اكتفت بعبارة «مع السلامة» ولم تعد تشعر بالدّلال الذي يدفعها لوضع قبلة على خدّه. ولم تكترث لو أنّ سارة شاهدتها أم لا، فسارة أغلقت باب الحديث عن جارها أبو راجي بمجرد أن فتحته في ذلك اليوم الصعب.

لكن دالية لم تعرف لماذا ظلّت دائماً تنتظر يوم الخميس.

❊❊❊

# مسارح الظنون

توقفتُ طويلاً عند ذلك الخبر. عنوانٌ لفت نظري قبل أن أبدأ بقراءة التفاصيل. ثقلت الجريدة في يدي، وأعاد لي الخبر أحداثاً مضى عليها أسبوع، لم أكن لأنساها، لكنّها صارت الآن ماثلة أمامي وكأنني أحياها مرة أخرى في حروف هذا الخبر.

ما زال همس كلماتها يوَشْوِش في أذني: «أبو طارق... أبو طارق... انهض، هنالك لصّ في المنزل، لقد سمعتُ صوتاً غريباً».

كان وجهها قريباً من وجهي، وفي العتمة

الشحيحة شاهدتها تضع إصبعها السبابة على فمها في إشارة لي كي أصمت. همستُ : « أيّ صوت؟!! أنا لا أسمع شيئاً ». فهمَسَتْ بإلحاح: «لا مجال للمجادلة، أقسم بأنّي سمعتُ وقع خطوات على الدَرَج، أحدهم يحاول فتح باب خزانة المؤونة في صحن الدَرَج ».

ما كادت أم طارق تنهي كلامها، حتى سمعنا صوت أزيز باب يتحرّك. فوثبتُ من السرير، وفتحتُ دُرْج الخزانة، وتناولتُ بندقية صيد، كنت قد اشتريتها بعد انتهاء خدمتي في الجيش منذ خمسة عشر عاماً.

في فورة الغضب، ويقظة الحواس في كل خلية من جسدي، ارتجفت أصابعي على زناد البندقية، لكنني تأهبتُ بكل جوارحي للدفاع عن بيتي.

سرتُ متسللاً نحو باب المنزل، تتقدّمني البندقية بماسورتها الطويلة، وتتبعني أم طارق. عبرنا الصالة بحذر. تحسستُ مكان المفتاح وأدرتُه ببطء شديد، وحرصتُ على ألاّ يصدر عن الباب أي صوت.

كان القمر يفرش الدَرَج ببقايا ضوئه، الدَرَج الذي يفضي في نهايته إلى سطح المنزل. عشر درجات ثم صحن الدَرَج بنافذته المطلة على الحديقة ، والمشرفة على الباب الخارجي للمنزل، وهو باب منخفض مكمّل للسِّياج، يمكن لأيّ شخص أن يفتح مزلاجه.

في طرف صحن الدَرَج، بين النافذة والجدار، وضعنا خزانة قديمة من الحديد لتخزين المؤونة، وبعض الوسائد والأغطية في رفِّها الأعلى. حبستُ أنفاسي عندما شاهدتُهُ متدثّراً بأحد الأغطية، نائماً قرب الخزانة. أشرتُ لأم طارق كي تتمهل، ثم أشرتُ نحو اللص الغافي.

تقدّمتُ بخفّة، فلاحظتُ أنه يفترش غطاء من الصوف تحته. كان يغطي كل جسده ورأسه، ينعم بأغطيتنا التي ندّخرها للضيوف وليس للصوص. صارت فوهة البندقية قريبة من رأسه، عندها صرختُ به بقوة:

«ولك يا حرامي قوم،

قوم قامت قيامتك؟».

انكمش في دثاره، وكشف عن رأسه، شهقتْ أم طارق من خلفي وصرَخَتْ: «امرأة، حرامي امرأة».

لم أخض حروباً ولم أشاهد أسيرات، لكنني أراهن أن هذه العيون الجزعة عيون أسيرة وقعت في قبضة عدوّ غاشم، تعصف بها الاحتمالات المشؤومة. كان عليّ أن أقول شيئاً، لكن دموعها غالبت قولي، وكلامها جعل كلامي همهمة لم أفهمها أنا نفسي.

جلسَتْ في موضعها، وقالت: «دخيلك يا عمي لا تؤذيني».

جلتُ في نظري بينها وبين أم طارق التي تقدّمت نحوها. راحت المرأة في نوبة بكاء مرير. عندما تأملتُ وجهها أربكني عمرها الذي في بحر العشرينات. يا إلهي أيّ ورطة هذه التي لبستنا: اللص امرأة، وعشرينية، والطامة الأكبر ذلك التكوّر والانتفاخ في بطنها. امرأة حبلى!!

دنتْ أم طارق منها، وسألتها بحزم لم يخلُ من رفق: «ما حكايتك؟ امرأة مثلك ماذا تفعل في بيوت الناس، وعند الفجر؟؟ أين زوجك، أين أهلك؟ ».

– أهلي في مدينة بعيدة، وزوجي ضربني وطردني، أردتُ المبيت حتى الصباح، لم أشأ أن أؤذي أحداً، فقط أردتُ المبيت في مكان يسترني حتى يطلع الصُّبح، وأسافر إلى أهلي.

– ألا يوجد لك أقارب هنا، واحدة في مثل وضعك لا يجوز أن تتشرد وتدخل بيوت الغرباء، أمر عجيب، كيف هنتِ عليه؟ كيف يضربك ويطردك وأنت حبلى؟!!

– والله يا خالتي لم...

لم أستطع إدراك شيء من كلامها، ارتخت يداي على البندقية، وزاغت قدماي، فجلستُ على الأرض مقابل المرأتين، أشحتُ بوجهي عن بطنها المتكوّر، ورحتُ أحدّق في أغصان شجرة التين التي كانت

تشرئب من خلف النافذة، وكأنها تنظر وتستمع للمرأتين.

منظر الثمار على الشجرة حمل شيئاً من السكينة إلى داخلي الذي عمّه شعور بالجزع والضياع، تلك الشجرة الفريدة التي ليست كباقي أشجار التين، فهي تظل تثمر حتى نهاية تشرين، ذكّرتني أنني في بيتي، لم أعتدِ على أحد، وليس لي يد في تلك الورطة التي جاءتنا تمشي على قدمين، ووحده الله يعلم ما هي حكايتها. تضطرب مشاعري بين خوف مما يمكن أن تبلينا به، وفي الوقت نفسه الشفقة عليها.

أذان الصبح كان ينسل خيوط الضوء من كرة الشمس، لعلّها تنبّه النائمين.

نهضتُ بصعوبة.

كان بودي لو أن من وجدناه طفلة أو صبيّة صغيرة، بلا أهل، نبقيها عندنا لتفرش البيت بهجة، وتؤثثه بالثرثرة والأحلام.

كم تمنّيتُ لو أن ذلك المتكوّر هو بطن زوجتي... تمنيتُ ذلك منذ ثلاثين عاماً ولم يحدث، ولم يأت طارق، ولا غير طارق.

وتلك التي لم تطرق الباب، أعطتها زوجتي ما قسمه لها النصيب من طعام، وربما نقود، لا أعرف، لم أسألها، وشيّعتْها حتى الباب الخارجي.

قرأتُ عنوان الخبر مرة أخرى: «عامل نظافة يعثر على طفل حديث الولادة قرب حاوية للنفايات»، أربكني أن ذلك كان في مدينتنا وعلى أطراف الحيّ الذي أقطنه. تلك الغريبة، ما الذي يُدريني إن كان ما قالته حكايتها فعلاً، أم ابتدعَتْها في مسارح التذاكي والخيال، بينما ترتع أفكاري في مسارح الظنون التي لا تلد إلا الشكّ والقلق.

❊❊❊

# قاب نعلين... أو أدنى

تتدافع الحشود خارج المبنى، تطرق الأيدي بوّابة حديدية مغلقة، وترنو الأذرُع إلى الأعلى، وعلى واجهة المبنى تتزاحم ظِلالهم المائجة. يطغى على أصواتهم صوتٌ ينبعث من الطابق العلويّ، يتحدّث عبر مكبّر صوت. رأى الناس المكبّر يتكئ على عتبة نافذة في الأعلى، على الواجهة المقابلة لهم. مكبّرٌ ضخمٌ يشبه بوقاً أسطورياً، ويحجب رأس المُنادي: «انتظموا في صفوف، يا أبناء آدم، لا يمكن إجراء مقابلات معكم في هذه الفوضى».

في الحجرة ذاتها، وخلف المُنادي، اجتمع الفريق حول مائدة مستديرة، وانشغل نفرٌ منهم بمراقبة أحد الحواسيب. كانوا يتندّرون بما يقرأونه على الشاشة من مطالب وأمنيات:

(...العيش مئتا عام. مليون ليرة ذهبية. شاشة فلات وسيارة دفع سريع. أن يطلّق زوجته ويتزوج بي. أحدث هاتف نقال. دونم أرض في «دير شحار». أن تنهدم عمارة عمي. أيّ حقيبة وزارية. فيلا في «عجبون». كوبونات بنزين تكفي مدى الحياة وثلاجة لا ينفد منها الطعام...).

كانت البوّابة مغلقة بأمرٍ من كبيرهم الذي وقف يسترق النظر إلى الحشود، مُخفياً نفسه خلف ستارة إحدى النوافذ. رآهم يتدافعون ويتكوّمون قرب البوابة، ينسِلون من كل حَدْب. طوفانٌ بشريّ ذكّره بطوفان المياه أيام نوح، تأمل الطوفان البشريّ، وراح يحدّث نفسه:

«أعجوبة الطين ودناءة الصلصال. لولا أن نفخَ فيهم من روحه، وذراهم في الأرض لما كان لعجائب الطين هذه شأن، لبقيتُ أسبّح اسمه، وأقدّس سرّه».

أشاح بوجهه عن النافذة، واتجه نحو المائدة المستديرة. فشاهد أوراقاً تتساقط تباعاً على الأرض. كانت الصينية تفيض بالأوراق، والطابعة مستمرة في عملها دون توقُّف.

شاط غضباً عندما رأى نفراً من أعضاء الفريق ينحنون على إحدى الشاشات، ويتنذّرون بما يقرؤون، فصرخ:

«كفى لهواً، لدينا عمل كثير، ألا ترون». وأشار إلى الأوراق التي تقذفها الطابعة. أحدهم لمع وهجٌ أحمر في عينيه وقال متحمّساً: «يمكننا أن ننظّم المقابلات الشخصيّة، على الأقلّ لأولئك الذين أعددنا لهم الصكوك... كي يقوموا بالتوقيع».

عاد كبيرهم إلى النافذة، أزاح الستارة قليلاً، فظهر أمام الناظرين في الأسفل، فتطاولت الظلال على واجهة المبنى، واشرأبّت وزاد حراكها، بدت مثل رؤوس غربان تنقر الجدار، وارتفعت الأصوات بالرجاء. سَبَحَ بنظره نحو التلال البعيدة، وراح يُخاطب الأرض:

«من أديمك، غرباً وشرقاً، من وعرك وسهولك، من جميعك، خلقه الله. صورة لا مثل لها في الجنّ، خلقاً جديداً ليجعله أفضل الخلائق.

كيف أسجد له وأنا خير منه؟!! خلقني من نار وخلقه من طين.

للنار سلطان على ما دونها، والطين دوني.

أنا اللافح الحارق، المتأجج المتوهج، الساطع المضيء، الملتهب المضطرم، الخفيف السريع. وهو اللزج، الليّن اليابس، الصلب اللازب، المتلبّد الثقيل، البارد المطفأ، المتصلصل، الرائق المتأني».

استدار كبيرهم، واتجه نحو الطابعة. بزهوٍ تناول رزمة من الصكوك، في أسفل منها مكانان للتوقيع، واحدٌ لذريّة آدم والآخر باسمه هو. همّ بإعطاء الرزمة للمُنادي كي يستدعي أبناء آدم المدوّنة أسماؤهم فيها، لكنّه انتبه إلى أحد أعضاء الفريق يجلس مستغرقاً في كبسات هاتفه النقّال، وكأن الأمر لا يعنيه. فباغته بصفعة قويّة كادت تودي بالعُرف النافر من رأسه: «تلهو يا خنّاس وتتركنا نغرق بالعمل!!».

– لست ألهو، في البداية أنا من اقترح أن يكون إعلاننا عبر شبكة الإنترنت، والآن أنا أنشر الإعلان بطريقة أخرى، انظر.

ونظر كبيرهم إلى شاشة النقّال، وقرأ:

«نحن مستعدّون لتحقيق أمنياتك، وبالشروط التي تراها مناسبة، بثمن تملكه: أن تبيعنا روحك. راجع موقعنا على شبكة الإنترنت واملأ الاستمارة، ثم احضر شخصياً إلى عنواننا المرفق لتوقيع صك البيع».

استحسن الشيطان الأكبر فكرة خنّاس، وقال له وهو يهز شوكته: «أنت فعلاً خنّاس».

صارت الأصوات في الخارج مثل هدير بحر هائج. والبوّابة بدأت تميد موشكة على الوقوع. كاد الحديد يهرس أجساد الواقفين

أمام البوّابة، والتي كانت تَنْعصِر بين مطرقة الأجساد التي تدفعها من الخلف، وسندان القضبان الحديدية.

صرخ أحد أعضاء الفريق القادم من أسفل سافلين: «انظروا، إنّ أعداد المسجّلين على الشبكة تزداد بجنون».

انكبّ نفرٌ منهم يرقبون شاشات الحواسيب، ويشهدون جنون الأرقام.

– لم نشهد هذه الأعداد منذ آدم وحواء.

– كانا اثنين يا فصيح.

– حسناً انس بداية الخلق، لقد مرّ بنا خلق كثير منذ ذلك الحين، أنسيتَ كيف كنّا نراودُ الواحد منهم، فننال منه بعد طول محاولة؟ بعضهم كانوا يمانعون، ينتبهون ويردّوننا مخزيين. أما هذا القبول السريع، فشيء عجيب!!

«ماذا أصابهم؟» علّق أحدهم وهو يلهث، ويضرب ذيله بالأرض.

صوت ارتطام قوي. البوّابة الحديدية وقعتْ وفاضَ الناس إلى الداخل. امتلأ البهو الداخليّ، وفارت الأجساد على السلالم، اضطربت الدرجات والأقدام، اهتزّت الحواجز الحديدية على حواف الدرجات،

ترنّحت موشكة على السقوط. ارتجفت القلوب، وسرى ارتجافها من جسد إلى آخر، كما تسري الكهرباء في المصابيح. الفوران يعلو، وهدير الأصوات يرتفع عبر الدرجات باتجاه الطابق العلوي. يتناهى إلى سمع الفريق شذرات من كلامهم: «أين الصكوك...؟ أنا أوّل... بل أنا قبلك، أين هم؟ الطابق الأخير... ».

على وجه كبيرهم بدت أمارات الدهشة والتعجّب، ودارت أفكاره سريعاً:

«منذ خلقتني عجبتُ من نفسي مرتين.

الأولى عندما أُمرتُ بالسجود لآدم. سجد الملائكة، وعجبتُ من نفسي، كيف لا أستجيب لأمرك!!؟

كيف لأحدٍ أن يرى الله، ويكلّمه الله، ولا يستجيب؟! وخاصة أنا. أنا الذي بقيتُ أسبّحه وأعبده أكثر من غيري حتى سمّيتُ العابد، بل زين العابدين، كيف عصيتُه؟!!

كان بإمكاني أن أتراجع، أندم، أتوب إليه، عندما قال: (ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟) لكنّه الكِبر، ازداد الكِبر في نفسي. وقطعتُ عهداً، منذ ذلك وإلى يوم يُبعثون، أن آتي نسل آدم من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم. أن أبثّ نسلي فيهم، في كل نفس منهم، فأغويهم، وأوسوس لهم.

والآن، يحدث ما يجعلني أتعجّب للمرة الثانية؛ فها هم يأتونني طوعاً. ينسلون من جهات الأرض، يأتون في طلبي، يبيعون أرواحهم لي... ».

أفاق كبيرهم من دوران أفكاره على هجوم أبناء آدم في الممرات القريبة من الحجرة. دبيب أقدام يرجرج الأرض، فترتجف الجدران، وترتعش المائدة المستديرة وسط الغرفة. رمى رزمة الصكوك من يده، ونادى أعضاء الفريق. أومأ بإشارة فهموها جيداً. عقدوا أيديهم بعضها ببعض، وانتظموا في وقفة دائريّة.

دبيب الأقدام يقترب، والأصوات تتعالى، ومصاريع أبواب الغرف المجاورة تُضرَب بالجدران.

وقف الشيطان الأكبر في منتصف الحلقة، وهتف بفريقه:

«لا حاجة لنا أن نحرث في أرضٍ محروثة ».

نكّس شوكته الثلاثية وضربها بقوة في الأرض، فغاص هو وفريقه إلى أسفل سافلين.

***

# تغيير

لم تكن متهالكة من الخارج فحسب، كانت منخورة من الداخل رغم أن عمرها لم يتجاوز عشرين عاماً. صارت سخرية أبنائي، وموضوعاً لتندّرهم: «تبرّعي بها للمتحف»، «أمي تخشى ألّا تتعرّف إلى البيت إذا غيّرت المكتبة، قد تظنه بيت الجيران...».

وصارحتني ابنتي الكبرى:

«هيئتها مزرية. أنا أخجل من منظرها عندما تزورني إحدى صديقاتي، أرجوك لقد بليَتْ،

يمكنك أن تغيّريها بمكتبة أخرى، وإلا فالكتب التي تريدينها ضعيها في صندوق في المخزن، وتلك التي لا تريدينها اهدِها لمكتبة عامة، أو لأيّ أحد.

وهذه الحلزونة!! تصمدينها كأنها جزء من المكتبة، منظرها يجلب الملل، أتظنينها تحفة؟ ».

أمسكتُ بالحلزونة. وضعتها قرب أذني، وأصغيتُ لهدير البحر، صرتُ كأنني على الشاطئ في العقبة، حيث جلبتها من هناك عندما كنت في مثل سنّ ابنتي. ابتهجتُ، وأردتُهم أن يشاركوني بهجتي، فقلت لها: «هل تعرفي أن صوت البحر يسكنها؟ ».

ضحكتْ حتى دمعتْ، يشاركها أخواها نوبة ضحكها. كانوا يتبادلون النظرات وينفجرون ضاحكين، مرة تلو الأخرى، وعندما لا حظتْ استغرابي، قالت وهي تغالب ضحكها:

«ماما، لكم أنت تنسين.

عندما كنّا صغاراً كنت تسمعيننا الصوت مراراً، وبصراحة، ودون زعل، كنتُ أجاملكِ عندما أبدي فرحي به، لا أعرف لماذا تحتفي به إلى هذا الحدّ؟ هذه الحلزونة مللتها، لا أرى فيها ما ترينه. ما عاد أحد يقتنيها ».

***

ضيق المكان يسرّع في خراب الأثاث. هذا هو السبب بالتأكيد. بدأنا اثنين نقطن منزلاً مكوّناً من غرفتين. مرّت ست سنوات، فصار الاثنان خمسة، ولم يزدد عدد الغرف. صرنا في حركتنا نصطدم ببعضنا وبقطع أثاثنا.

منذ زمن وأنا أتحين فرصة لترتيب كُتُبي. أنظر إلى مكتبتي باشتهاء غالباً ما يكون مؤجّلاً، فتفاصيل الحياة كثيرة، تشبه قنابل صنعت خصيصاً لتبديد الوقت. لو بحثتَ عن وقت لك، لن تجد إلا شظايا من الزمن في فراغات هامشية بين مهمّة منزلية، أو أموميّة، أو اجتماعية.

اشتهيتُ أن أنفرد بمكتبتي بضع ساعات، ولمّا جاد بها الزمن عليّ، أدركتُ كم كان أبنائي على حق؛ آن أوان التغيير.

***

خشبٌ مكسيٌّ بقشرة «فورمايكا» بلون البلوط موشاة بعروق، لها بابان لكل منهما إطار خشبيّ على شكل قوس، وزجاجٌ برونزي يشفّ عن عشرات الكتب المرصوصة على الرفوف الخشبية. هكذا كانت، أما الآن، فلم يتوقف الأمر على لوح الزجاج المكسور، والذي كنتُ أنوي أن أبدّله منذ ثلاث سنوات، ولا على القشرة المخلوعة في أسفلها، لكنني لا حظتُ أنّ شَبَر الخشب على جانب الأبواب كان قد انفكّ في مواضع كثيرة.

بدأتُ تفريغ الرفوف: قصص وروايات، دواوين شعر، دراسات، وسلسلة مجلّدات؛ أمهات الكتب عن مدينة القدس، كنتُ أعطيتها الصدارة على الرف الأعلى، وجدتُ الرفّ مخلوعاً، والمسامير تبرزُ من الجدار الداخلي المتفسّخ، وكان ما يستر على كل رفّ أنه يتكئ على كتب الرفّ الواقع تحته.

كان اتساع الرفوف يغريني فأَصُفّ الكتب في صفّين عموديين، وألحقهما بكتب فوقهما. الرفوف المسكينة قد حملت أضعاف ما تحتمل.

***

آن أوان التغيير.

الكتب التي قرأتها وأعرف أنني لن أعود إليها تبرّعتُ بها لمكتبة عامّة.

تجولتُ في السوق طويلاً باحثة عن خزانة كتب مناسبة، لم تعجبني أيّ مما شاهدت. فأوصيتُ نجّاراً بتفصيل واحدة.

المكتبة القديمة لم يقبل بائع أثاث متجوّل أن يشتريها، فأعطيته إياها مقابل تفضّله هو ومساعده بحملها وأخذها.

أيقظتُ البحر في الصَدَفَة الحلزونيّة، لم أقدر أن أتخلّى عنها، وضعتُها على المنضدة قرب سريري، تذكّرتُ؛ كان الناس في

سبعينيات القرن الماضي يستعملونها منفضة سجائر، لكنني لن أفعل. لا مبالاة ابنتي بها استفزّت فيّ حب الاستماع إلى هدير الموج الساكن فيها، والذي نسيتُه لسنوات.

***

عشيّة موعد تسلّم المكتبة الجديدة، وبين الجدّ والضحك، انهالت عليّ تعليقات الشباب: «والله أمي قلبها قوي»؛ «في بيتنا ربيع عربي»...

***

فتحتُ بوّابة الدار على مصراعيها، وأوصيتُ العمّال بالتأني في نقل المكتبة، إلى أن تمركزتْ في موضعها الجديد.

التغيير شيء مبهج، يحتاج إلى جرأة خاصة، لكن ما مقدار الجرأة التي يحتاج إليها؟ «جرأة كبيرة تعني تغييراً أكبر، جرأة قليلة تعني تغييراً أقل»، هذا ما أدركته حين عاد أبنائي من الجامعة والمدرسة، وتناهت إليّ تعليقاتهم عندما شاهدوا مكتبتي الجديدة:

«اللون جميل، قشرة فورمايكا بلون البلوط... يا سلام».

«وعليها تعريقات الخشب».

«إطارات خشبية للأبواب على شكل أقواس، شيء جميل، والأجمل هو ذلك الزجاج البرونزي».

# المضبوع

مثل المضبوع أخضع له. أطيعه، أتبعه، ولو إلى حتفي.

ومثلما يبول الضبع على ذيله ويرشق غريمه برذاذ بوله المخدِّر، كان هو يفعل بي. منذ كنتُ فتى يافعاً، كان لا يكتفي بتوبيخي وشتمي، فلا يكتمل الطقس إلا عندما يبصق في وجهي، فيرشقني برذاذ لعابه. رذاذ لعابه يخدّرني، يشلّ تفكيري ويسلب إرادتي، أصير تابعاً مطيعاً، أقع تحت سطوته وسيطرته، لا أبدي أيّ مقاومة.

أسير خلفه من نافذة إلى أخرى، حاملاً ألواحاً خشبيّة ومسامير. يتجوّل في أنحاء المنزل، حاملاً مطرقة. يتفحص نافذة، يتأكد من مصراعيها وقفلها. يهزّ لوحاً مثبتاً على نافذة أخرى، يختبر ثباتَه. يمدّ يده فأناوله لوح خشب، ومسماراً إثر مسمار، يدقّها بمطرقته، مثبّتاً لوحاً جديداً يسدّ به فراغاً يمكن أن يتسلل منه جسم مارق أو سارق.

يعلو صوته فجأة، ممزوجاً بضربات المطرقة:

«الاحتياط واجب. صحيح هم أولاد عمك، لكن لا يؤمَن جانبهم. ذيل الكلب عمره ما ينعدل. أبوهم من قبل ضحك على جدّك. وبقدرة قادر صارت الأرض الفوقا ملكه».

يدقّ المسمار الأخير في لوح الخشب ويكرّر: «الاحتياط واجب».

صرتُ أكره ضربات المطرقة، وأشعر أنها تتواطأ مع كلامه، وكأنما تردّد معه بإيقاع ضرباتها: «الاحتياط... واجب... الاحتياط... واجب...».

«الاحتياط، الأمن، غدر الأقارب، نغمة يعزفها باستمرار، لكنها صارت كل ما يشغله منذ عام، عندما ضعف بصره، ووهن جسده، ولم يعد قادراً على العمل في المنجرة. ألواح الخشب لم تعد لها وظيفة الآن إلا للأمن والتحصين، بعد أن كان يطوّعها،

فتصير خزانات وأسِرَّة، كراسي وطاولات، ونعوشاً. وكم راحت وجاءت «الفارة» في يده تقشر الخشب. يدفعها ويسحبها، دون تلكّؤ، مستمتعاً بالكساء الذي تلبسه الأرض من قشور الخشب التي يجمعها بمكنسة، ويعبّئها في أكياس، ليبيعها إلى أصحاب المشاحم».

ينتقل إلى الشُبّاك المجاور. يسحب كرسيّاً ويعتليه. يمدّ يده فأناوله المطرقة، يمدّ يده الأخرى فأناوله مسماراً. مثل جرّاح في غرفة العمليات يمدّ يده فيناوله ممرض مشرطاً أو مقصاً دون كلام. في هذه الجولات التي تتكرر كل يوم جمعة، كان المنزل يزداد تجهُّماً.

«بيتٌ بلا أنوثة، لا تجد على حبل غسيله تنورة، أو ثوب أنثى، أو حتى غطاء رأس. ولا تنبعث منه رائحة طهو، غير بيضٍ مقليّ، بطاطا مقليّة، قلايّة بندورة. ولا تجد في نفايته ما ينمّ عن وجود أنثى.

بيتٌ متجهّم. لم يبتسم منذ خرجت أمي على نعشها وبقينا أنا وهو».

– حتى أهل أمك، احذرهم. أخوالك «قطّاعين طُرُق».

قالها وهو يهوي بالمطرقة على المسمار.

أهل أمي، أعمامي، أبناؤهم، كل هؤلاء يتربصون بكنزه المخبأ، في خزانة عادية، بثلاثة أبواب. للباب الأوسط من الداخل مرآة رهيبة، تجعل القامة أقصر والوجه مثل الوجوه الكاريكاتورية، فهي تمطّ الوجه بالعرض.

في الرف العلوي «للظرفة» الوسطى، يضع علبة جلبها خالي هديّة يتيمة في السبعينيات، عندما عمل في الكويت، وجاءنا ليتباهى أنه يشترى شكولاته ماركة «ماكنتوش». احتفظت أمي بعلبة أخيها التي فرغت في بضع ساعات. استغلّتها في حفظ الصور القليلة الموجودة لدينا، شهادات الميلاد، عقد زواجها، كوشان الأرض. لكنها، وعندما جاء أخي بحقيبة دبلوماسية، منحه إياها سلاح الجو في الدورة التدريبيّة، سرعان ما وضَعَتْ الأوراق فيها، فأخذ أبي العلبة وقال إنها مناسبة لحفظ مدّخراته. وكانت مدّخراته بضع أوراق نقديّة. ويوماً بعد يوم صارت العلبة تكتنز بأوراق نقدية وعملة معدنية، تمتلئ، فيستبدل الأوراق بفئات نقدية أكبر. صارت تسمن بما يأخذه من راتب أخي من سلاح الجو، ثم من مهر أختي، ثم من عيديّات أمي. ولا أعرف من ماذا أيضاً، لكنني أعرف أن لي يداً في تسمين علبته مما يأخذه مني.

عملتُ عنده مقابل طعامي، ودنانير قليلة لا تكفي شراء حذاء جديد، أو ملابس. كان يجنّ جنونه إذا طلبت منه نقوداً للذهاب إلى السينما، فيصرخ في وجهي: «لم يعد التلفزيون يعجبك. فاجر

طالع لخوالك». وعندما هدّته السنون، ولم يعد قادراً على العمل، لم يقفل المنجرة، إلا بعد أن وظّفني في منجرة لأحد معارفه، براتب يأخذه، ويعطيني ما يطيب له.

مدّ يده، فناولتُه لوحاً خشبياً، بدأ يثبِّته بالمسامير على عرض الباب. فنطقتُ: «احذر كي لا تغلق الباب علينا بالمسامير، كيف يمكن أن نخرج؟».

بلحيته البيضاء، وعدسات نظارته المكبّرة، ودشداشته البيضاء، وجسده النحيل، بدا مثل الأب الروحي لـ«السنافر»، لكنه أبٌ غاضبٌ. رمقني بنظرة قاسية، وبدت عيناه أكثر اتساعاً من خلف عدسات النظّارة، فقلت في نفسي: «أالله يستر. بِدْها طولة بال».

أدركتُ أنه عتقني من توبيخٍ كان محتوماً، عندما قال:

«بيت عمك قطاعين طُرُق. مشكلة أن نملك الأرض نفسها. أن تكون بيوتنا متجاورة، كيف أأمن جانبهم؟ جدّك أورثنا الأرض، واقتسمناها. وتحتّمت علينا الجيرة. لكنني أعرف نواياهم، لا يؤتمن جانبهم. عمك «بكر» ضحك على جدّك وجعله يسجّل له الأرض الفوقا. «بكر» نفش ريشه لأن ابنه تخرج من الجامعة. انظر حولك تجد ثلاثة أرباع البلد درسوا في الجامعات...».

يطرق ويتكلم، فمه يتكلم والمطرقة تتكلم. يمسك المسمار بإصبعين في يده اليسرى، بمهارة من في يده خمس أصابع.

تذكّرتُ كيف نعتني ذات يوم بالأعمى والأهبل، عندما فَرَمَ المنشار طرف إصبعي السبّابة. وبقي أسبوعاً كاملاً يوبّخني ثم ينثر رذاذه المعهود في وجهي، فأتسلّل، وأختفي في غرفة المستودع الداخلية الضيقة التي تشبه الممرّ، هناك بدأتُ أشمّ «الآغو».

لم يُبدِ رضاه عني إلا في مرات قليلة. مرّة عندما أعطيته ورقة نقدية أخذتها من رجل قصصتُ له بضعة ألواح خشبية، وطلبتُ منه عشرة دنانير. ولم نكن نأخذ إلا دينارين. تناول النقود وابتسم ولم يعلّق على فعلتي.

ومرّة أخرى، أذكرها جيداً، عندما نسي أحدهم معطفه، فارتديته، ووضعت يدي في جيبه، فارتطمت يدي ببرودة معدن، أخرجتُ ما في جيب المعطف فكانت ساعة رجالية، ارتديتُها على الفور، ثم خلعتُ المعطف، وأعدتُهُ مكانه، كان ينظر إليّ بطرف عينه، والفارة تروح وتجيء في يده، والنشارة تتناثر. هزّ رأسه يميناً ويساراً، حاول أن يخفي غبطته وهو يقول بنبرة هادئة:

– لا يجوز. ينبغي أن تعيدها.

– لكنها تعجبني، ومن قال له أن ينسى أشياء ثمينة، يحتاج إلى درس على لا مبالاته.

– أنت حرّ، ذنبك على جنبك.

في هذه اللحظة ترك لي الحرية، وترك لي الذنب أيضاً. ولكنه، سرعان ما أخذ مني الحرية، وأبقى الذنب ما بقي لي من العمر.

استمرّ في طرق المسامير، قلت له:

– لماذا لا تشتري جهاز إنذار مثل الذي شاهدناه في التلفزيون.

– تسخر مني يا...

انهمرت المسامير من يدي عندما رميتُ جسدي جانباً محاولاً تفادي المطرقة التي رماها نحوي في فورة غضبه. لكن عصا المطرقة ظفرت جبيني، فأحسست بضربة كادت تكسر جبهتي.

كان بإمكاني النهوض. لكنني أحسستُ بلذّة غريبة؛ مُتعة الألم. لم أفهم. لكنّني أدركتُ أن الألم المحسوس والمادي يصير شيئاً لذيذاً، عندما تنغمس حياتك في غمرة ألم غير ممسوك، غير محدّد.

كان بإمكاني النهوض لكنني استسلمت للّذة، وليظُنّ ما يظُنّ. أحسستُ سخونة الدم النافر من جبيني، بدأ يسيل على وجهي، ولأول مرّة لم أشعر برذاذ لعابه الذي كان يمطرني به، في سماء ملبّدة بشتائمه، وصوته الذي صار مثل الرعد.

تضاءل الضبع. بدا قطاً غبياً، أستطيع أن أدوسه بقدمي فأمعس أمعاءه.

«جهاز إنذار! تسخر مني يا ابن الكلب. أنت لا تعرف نواياهم. أنا أعرف بم يفكّر أبناء عمك. بالتأكيد هم يخططون لسرقة تعبي ومالي».

انحنى والتقط بضعة مسامير عن الأرض، وعاد للطرق، ثم تابع:

«ولا تفكّر أنّ أخوالك أفضل، أعرف أنهم حاقدين. لم أطمئن لهم منذ توفيت أمك وصار إرثها لي. ابن خالك ناوي على مشروع كبير، وبالطبع سيفكر في كل قرش يمكن أن يحصّله. أخوالك نجسين، يسألون عن مصاغ أمك. هات مسمار، يكفي تمثيل، هيا انهض... حتى جارنا الغريب أنا غير مطمئن له. عمّك «سعد» رحل وأجّر البيت للغريب. الرجل رايح جاي عينه على الدار، يظنني غافلاً عنه!».

تظاهرتُ أنني غائب عن الوعي. سمعتُ طرطقة عظامه وهو ينحني بجانبي ليلتقط مسماراً عن الأرض، ويدقّه في لوح الخشب. بقي يطرق إلى أن غلبه التعب والنعاس، فانسحب إلى غرفته.

***

القمر تعبان في الخارج، والبيت ما زال متجهّماً، مكبّلاً بعشرات المسامير التي دُقَّت في نوافذه وبابه. شبحُ رجلٍ ملثَّم يتسلل إلى غرفة الشيخ. يقف بالباب متأملاً الغرفة الغارقة في ظلال سوداء

تشرّبت صبغة الضوء الأحمر المنبعث من «النوّاسة». جالت عيناه في الستائر، الجدران، شرشف السرير والجسد الغافي المكوّم تحته، الخزانة في الناحية المقابلة للسرير.

تسلل الرجل الملثّم ووقف أمام الخزانة. فتح بابها الأوسط، وأخذ يبحث في الأشياء الموجودة على الرفّ العُلويّ. شاهد علبة معدنية مستديرة، تبدو عليها صورة رجل في زيّ الحرس البريطاني مع امرأة شقراء، مثل «بورتريه» باللون الأحمر. سحب العلبة، فسقط شيء ما أرضاً. بقي الرجل ساكناً في مكانه والعلبة في يده. وراح يحدّق بالعجوز ليتأكد أنه ما زال غافياً.

الصوت خلع عن العجوز غفوته. فتح عينيه، وجال ببصره. سكون، وضوءٌ أحمر خافت. جالت عيناه مرة أخرى في الغرفة دون أن يتحرك، قلب جسده إلى الناحية الأخرى من السرير ، فشعر بألم شديد في ترقوة يده اليمنى. وبنظرة كسولة رأى الخزانة وقد تشرّبت صبغة الضوء الأحمر، لكن الكسل فرّ من عينيه عندما التقت نظرته بعينين في وجهٍ ملثّم. ظِلٌّ لم يكن قبل نومه. شبح يقف أمام خزانته. نظرته ثاقبةٌ، ويداه تمسكان علبة «الماكنتوش»، وفي إحداهما سكين .

فتح الملثّم العلبة، ودلق محتوياتها على المنضدة. نظرةٌ على الغنيمة، ونظرة تستلب قدرة العجوز وإرادته. يُصارع العجوز

حنجرته، يلملم شجاعته، يرتّب أنفاسه، لكن العينين المحدقتين به تجرّدانه من أي فعل.

يصعد قلبه، يواصل صعوده نحو حلقه. يتجمّد في فراشه، يندلق منه العرق، وتنحسر أنفاسه. وسؤال واحد يطفو على هلعه : «من يعصم دمي منه لو صرخت؟ ».

لملم الملثّم محتويات العلبة ودسّها في جيوب معطفه، انفرجت شفتاه عن ابتسامة تحت لثامه عندما تخيّل الحارس يثب تاركاً السيدة الجميلة، شاهراً سيفه ليدافع عن مدّخرات الشيخ.

بحركة سريعة راح الملثّم يشهر السكين باتجاه العجوز، وينسحب خارجاً من الغرفة.

***

صباحٌ عاديٌّ، مثل كل صباح. أعددتُ الإفطار والشاي، ارتديتُ ملابس العمل وجلستُ إلى المائدة. كان أبي يجرّ خطواته قادماً من غرفته. جلس إلى المائدة، ثم أطرق واضعاً رأسه بين يديه. بقي كذلك بضع دقائق، ثم رفع رأسه، وقال:

«الكلاب، عملوها. صحوت عند الفجر لأجد باب الخزانة مفتوحاً، وكل ما في العلبة قد سُرق. لو رأيتُ الفاعل، لأرديته قتيلاً في أرضه ».

ثم تابع: «لن أبلّغ الشرطة، لن يعترف أيّ منهم بفعلته، وما من دليل. سآخذ حقي بيدي»، وأضاف: «اجلب مزيداً من الألواح والمسامير».

مساءً، لم يتحدّث والدي، ولو بكلمة واحدة، عندما وضعتُ على المائدة ما جلبتُهُ من لحم مشويّ ومقبّلات. في المساءات التالية، كان يأكل ما أُحضره من طيّب الطعام بصمت، لم يسألني من أين لك هذا؟ لم يوبِّخني أو يشتمني. وعندما بدأت أرتدي ملابس جديدة، وأنتعل حذاء لم يسبق له أن انتعل مثله، همهم بكلمات لم أسمعها، كان كمن يحدّثُ نفسه.

لم يكفّ عن شتم أعمامي وأخوالي. صمَتَ عنّي، لكنّ مطرقته ظلّت تحكي.

❊❊❊

# بضع رشفات تكفي

لا يشفع له أن المسافة بين الحدث ونسيانه تقاس بساعة بيولوجية حمقاء تدور عقاربها إلى الأمام والخلف كما يحلو لها. فلا يشفع له أنه كثيراً ما يبحث عن مفتاح البيت، ينبش جيوبه، وفجأة يقع نظره على المفتاح وقد وضعه قبل ثوان في قفل الباب. أو نار الثقّاب التي وجّهها نحو فمه ليشعل السيجارة، ولم تكن أيّ سيجارة بين شفتيه.

أفعالُ كثيرة مماثلة يقوم بها، كلها لا تشفع له أمام ما حدث.

فمن العادي أن يبحث عن نظارته في كل مكان، ليكتشف أنه يرتديها، أو أن يعدّ بضعة فناجين من القهوة ويضعها على «الصينية»، ليشرب القهوة وحيداً. وحتى حكاية «الشبشب» الذي نسي أن يستبدله ذات يوم، وذهب إلى العمل مرتدياً ملابس رسميّة و«الشبشب» في قدميه، لا تشفع له.

حضور الذهن وشروده، النسيان، مسائل تخونه كثيراً ، لكنها لا تشفع ، ولا تبرر ما حدث منذ دقائق.

فكّر، ربما تكون الآن هبطت السلالم ووصلتْ بوّابة العمارة، أو قد تكون ابتعدتْ قليلاً في الشارع. شعر بالإ حراج، وقرّر أن يلحق بها ويعتذر. لام نفسه كثيراً. وفي محاولة للتبرير تساءل: «لو كنتُ حقاً منجذباً نحوها، هل كان هذا ليحدث؟ ولكن كيف حدث ذلك؟».

تذكّر جيداً كيف كانت تجلس على طرف الأريكة، عندما قدّم لها كأس عصير، وجلس على الطرف الآخر. سألها عن أحوالها، بينما يده تمتد نحو الطاولة القريبة لتتناول جهاز التحكم عن بعد، وشغّل التلفاز.

يذكر كيف راح يتنقل بين الفضائيات الواحدة تلو الأخرى. لا يعرف كم مضى عليه من الوقت حين فطن أنها معه في الغرفة. التفت حيث كانت تجلس، فلم يجد أحداً، نادى عليها، وبحث عنها. لم يجد لها أثراً سوى كأس عصير، ارتشفت منه بضع رشفات.

نزل السلالم، ليلحق بها.

وقف بباب العمارة، ونظر مستشرفاً الطريق. شعر ببردٍ مفاجئ وبلل يتسرّب إلى قدميه، كانت أنبوبة مياه قريبة تكبّ مياهها بغزارة. سار بضع خطوات وتوقف متفحِّصاً الأنبوبة المكسورة، ثم تناول هاتفه الجوّال، ليبلّغ سلطة المياه عن عطل في أنابيب المياه.

استطلع الأرقام المخزّنة في جوّاله، فلم يجد رقم هاتف السلطة بينها.

تذكّر أن لديه دليلاً للهاتف في شقّته، فانطلق صاعداً السلالم.

***

# في القاع

نادى الصبيُّ المارّة مبتسماً، داعياً إلى صندوقه: «تفضل، تفضل يا بيك». كان ينتقي عباراته التي حاول أن يجعلها مؤثّرة، ومناسبة لكل مقام: «برجّعها جديدة» أو «طالعة من الفترينة الآن» أو «بدها وجهين تلميع». يثير صوته همّة بائع الكعك، الذي يقف قريباً من باب المقهى، فينادي: «كعك ، كعك، سخن يا كعك». وبعد جولات من المناداة، كان الصبي يمنح نفسه استراحة، فيرجع إلى الخلف قليلاً، ليتكئ بظهره على الجدار.

على الجانب الآخر من الجدار، أخذ الرجل الجالس قرب الطاولة، يمزّق الورقة التي لم ينته من كتابتها بعد. طلب من النادل كأس شاي بالنعناع، وانشغل بورقة أخرى بيضاء. كتب:

(فرح الصبي بالأقدام الكثيرة التي امتطت صهوة صندوقه. كان يجمع قروشه وهو مطمئن، قائلاً في سرّه: «لم يبقَ سوى ساعة أو ساعتين، وأنهي عمل اليوم، ثم أعود إلى المنزل وأعطي أمي النقود»...)

***

شاغل الصبي نفسه بترتيب عُلب «البويا» على الصندوق أمامه، ثم وضع الفراشي إلى جانب الصندوق، متخيّلاً إياها سيارات يركنها في أوضاع مختلفة، مُصدراً صوتاً يشبه صوت محرّك سيارة. أخرج من جيبه «فوطة»، وراح يمسح مسند القدم المعدنيّ. طوى «الفوطة» بعناية، وأعادها إلى جيبه، ثم راح يراقب الرصيف، ويتأمل الأحذية في أقدام المارّة. رأى الرصيف حقلاً يموج بالأقدام، أحذية الرجال ذات ألوان داكنة، ما بين نظيف أو مغبرّ، مهترئ أو جديد. أحذية النساء مثل أحذية دمى كبيرة، ملوّنة لامعة، بعضها بكعب عالٍ، عالٍ جداً.

أقدام تدقّ الأرض بكعبها، وأخرى تنزل على رؤوس أصابعها. أحذية تعبر مسرعة، وأخرى تزحف بطيئة. لمح القدمين السحريّتين،

تُقْبِلان من بعيد. فأخرج «الفوطة» من جيبة. كل يوم تمرّ من هنا، ثوبها جميل نظيف مكويّ بعناية، تحمل حقيبة بلون الحذاء، حقيبتها تلمع، حذاؤها نظيف لامع، شعرها بني لامع، ودائماً أظافرها مطليّة بعناية. كل يوم تقبل نحوه، تمرّ قربه ثم تتجه نحو البنك المجاور. كان يتخيّل هذه المرأة تستيقظ صباحاً، منهكة متعبة، شعرها منكوش متسخ، ملابسها رثّة. تفتح عينيها فتنبثق أمامها جنيّة، تطلع من أشعة الشمس، وبيدها عصا سحريّة. تلمس الجنية المرأة بعصاها، فتتحوّل هيئتها، لتصبح مثل الأميرات.

فضّ الصبي «الفوطة» المطويّة، وفكّر:

«سأمرر الفوطة بحركة سريعة بحيث تلمس حقيبتها، ذيل ثوبها، حذاءها، يكفي أن تلمسها، ليحلّ سحرها في الفوطة. سيصير عندي فوطة سحريّة تريحني من عناء كبير، سأمرّرها بخفة وسرعة على كل الأحذية التي قد تحطّ على صندوقي، فتتحوّل إلى أحذية جديدة لامعة».

***

مرّت ساعات، والرجل منكبّ على الورق. شعر بالجوع، فوضع القلم جانباً ونهض. وقف بباب المقهى، ثم عبر الشارع. عاد بعد قليل إلى طاولته في المقهى، طلب فنجان قهوة. تناول ورقة، وشقّ طرفها، ثم طواه عدة طيّات، فصار مثل «نكّاشة» الأسنان.

اتكأ برأسه على الجدار، وأخذ ينظف أسنانه مما علق بها من فُتات اللحم الرديء الذي تناوله قبل قليل.

***

خلف الجدار كان الصبي قد فرغ من مسح حذاء أحد الزبائن. داعبت أنفه رائحة شواء انبعثت من المطاعم القريبة، فبلع ريقه بصمت واشتهاء.

غمس الصبي إصبعه السبابة في علبة الطلاء البُنّي، ثم مرّغ إصبعه على أرض الرصيف الأسمنتية، وراح يحركها بشكل دائريّ، فتشكلت دائرة بُنيّة. رسم صفاً من الدوائر البنيّة، الواحدة قرب الأخرى، ثم غمس إصبعه في علبة البويا السوداء ومرّرها بخط مستقيم مثل سيخ أسود اخترق الدوائر البنيّة كلها.

نظر إلى رسمته على الرصيف، ثم نظر إلى الجدار خلفه، غمس إصبعه باللون البنيّ، واستدار رافعاً يده نحو الجدار، لينقش عليه قطعاً من اللحم مشكوكة في سيخ شواء، فخطر بباله أن صاحب المقهى يمكن أن يغضب، ويمنعه من الجلوس في هذا المكان مرّة أخرى.

سكنت يده الملطّخة بألوان البويا وانتصبت أمام وجهه، وانثالت في ذاكرته سخرية الأولاد في المدرسة، وتهكُّم المعلم

وتوبيخه: «ألا يوجد في بيتكم ماء وصابون؟! كيف تأتي إلى المدرسة ويداك مصبوغتان بالبويا؟ ألا يكفي أنك كسول ولا تقوم بواجباتك؟ ».

انتبه الصبيّ إلى صوت صاحب المقهى يحيّيه. لم يبتعد كثيراً عندما توقّف محدِّثاً أحد معارفه، وهو يشير نحو الصبيّ: «المسكين يعيش وأخته الصغيرة عند جدّيه، منذ انفصل والداه، وصار لكل منهما حياة أخرى. الأم تزوجت، والأب تزوج، وتركاهما لجدّين قضمت السنون عافيتهما. عجوزان لا حول لهما ولا قوة... ».

***

بعد أن شرب الرجل قهوته، تمنى أن يسعفه القلم، وأن يتسع الورق لما يفيض في رأسه من رؤى وأفكار. أمسك القلم وكتب:

(...منذ وفاة الأب قبل عام، كان عليه، رغم صغر سنه، أن يعيل أسرته. كان الأب عامل بناء، لم يترك للعائلة راتباً شهرياً، ولم يكن للعائلة مصدر دخل يقيهم عثرات الزمن.

بعد شهرين من وفاة الأب، صار الصبي يلحّ على والدته طالباً العمل، ولم يكن هناك من مفرّ أمام الأم ، فإما أن يعمل، أو يجوع هو وإخوته الصغار.

مسحُ الأحذية كانت فكرة الجارة التي توفي زوجها العجوز

تاركاً وراءه صندوق «بويا» وبضع فراشٍ، فاقترحت على الأم أن تستفيد من هذا الصندوق.

قبل أن ينهض الصبي، تحسّس جيبه، وسُرّ لأنه جمع مبلغاً جيداً في ذلك اليوم. كم يتوق لرؤية وجه أمه عندما تلقاه، فتتبدّد مسحة الحزن عن وجهها عندما تبتسم لقدومه. لحظات، ثم يحلّ الحزن في وجهها من جديد.

سوف يغتسل ويزيل أي أثر للبويا عن وجهه ويديه، سينظف أصابعه بعناية، ثم يأكل، وينهي واجباته المدرسية، وربما يسعفه الوقت، فيلعب قليلاً مع إخوته، ثم ينام، ويذهب صباحاً إلى المدرسة...).

ظلَّ الرجل منكباً على الورق، وهو يعيد الحكاية على نفسه ويعدّل كلمة هنا وجملة هناك. نظر عبر الواجهة الزجاجية للمقهى، فلمح، وسط الظلام، رذاذاً خفيفاً يتناثر في الضوء المنبعث من أضواء السيارات.

نهض مسروراً بإنجازه، حرّك يديه وكتفيه يميناً ويساراً، ليفكّك التيبُّس الناجم عن انكفائه على الورق لبضع ساعات.

***

الصبيّ، على الجانب الآخر للجدار، صحا من غفوته، بعد أن شعر

بقشعريرة ورذاذ ترشقه الغيوم على وجهه. نهض بتثاقل يلمّ علب البويا والفراشي.

***

لمّ الرجل أوراقه، وارتدى معطفاً طويلاً، ثم وضع الأوراق تحت إبطه داخل المعطف وشدّ يده عليها، كي لا يحيل المطر كلماته إلى سيول زرقاء، تسبح مثل الطلاسم على الورق. وضع قبّعة على رأسه واتجه نحو الباب.

***

حمل الصبي صندوق «البويا»، وعلّقه بحزام الجلد على كتفه. دفن رأسه في ياقة معطفه، ومشى نازلاً الشارع إلى قاع المدينة. سار مع السور الذي يحجز الوادي عن الأسفلت، وراح يدندن بأغنية تُعينه في المسير، وتنسيه البرد، وتداري جوعه الذي اعتاد أن يحتال عليه برسمته المعهودة التي تركها على الرصيف، بقعاً بُنيّة تفوح برائحة البويا، تنقرها حبّات المطر، فتنمحي وتذوب، وتسيل نحو المجاري.

سمع وقع خطوات تقترب خلفه، فاستدار. كان رجلاً يضع قبّعة، ويرتدي معطفاً طويلاً. مرّ الرجل وتجاوز الصبي مهرولاً نحو قاع المنحدر. تابع الصبي سيره وكانت المسافة بينه وبين الرجل تزداد، لكنه كان على مرمى بصره.

في آخر الشارع المضاء، لمح الرجل يقف بباب قريب من مدخل الزقاق. وقف قليلاً ثم اختفى. دقائق قليلة ووصل الصبي الباب، حيث اختفى صاحب المعطف. سار بضع خطوات وانعطف في الزقاق. زقاق طويل يغرق في العتمة، وفي آخره باحة ترابية صغيرة، حيث منزل الصبي. توقف قليلاً ودقق النظر متفقداً الأشباح الليلية السوداء؛ شبح منزل صغير، شبح منشر الغسيل المكوّن من قطعتين من خشب «الطوبار» مشدود إليهما حبل ما زالت عليه أشباح سوداء لقطع ملابس هنا وهناك، عُلب السمن الفارغة المزروعة بنباتات زينة رُصّت على مسافة من المدخل لتعطي حدوداً خارجية للمنزل. أشباح سوداء تقف باستقباله كل ليلة، يُحبّ أن يتأمّل اللوحة على خلفية الليل والمطر، لوحة من «البويا» السوداء، لكن المياه النازلة لا تحلّلها، لا تجلو قتامتها.

لاح له شبحٌ يجلس بباب الدار ساكناً مُلقياً رأسه على كتفه. وضع صندوق «البويا» جانباً، وهزه بكلتا يديه:

– أبي، أبي، اصحَ...

كانت تفوح منه رائحة قيء. فتح عينيه، وقال بصوت خَدِر:

– لم تقبل أن تفتح لي الباب، هل تعرف كيف يمكن لي أن أتفاهم معها؟ اسمع، أرغبُ أحياناً في أن أعلّقها من قدميها وأتركها تتأرجح، وترى الدنيا بالمقلوب... أتعرف لماذا؟ لأن دنياها

أصلاً بالمقلوب، علّها بذلك تنعدل. فهي تشكو وتتذمر، وتفتعل النكد عندما أكون مسروراً، وتضحك عندما أكون مغموماً...

فُتح الباب، وأطلّت امرأة، فقال الصبي:

– أمي ساعديني، ساعديني كي ندخله...

وهمّ بالنهوض ماسكاً يد أبيه، لكن المرأة سارعت في القول:

كيف نقبله في الدار، وهو يزيد من أعبائي، يوم يعمل وعشرة لا، وعندما يعمل ينفق النقود على نفسه ولا يبقي لنا إلا القليل، أتظنني سعيدة لعملك وتركك الدراسة؟ أم سعيدة لخدمتي في المنازل؟

فتح الرجل عينيه وضحك، ثم توجّه في حديثه إلى الصبي:

– ألم أقل لك؟ إنها ترى الدنيا بالمقلوب. أنا أريد أن أعمل، لكنّ صاحب العمل يوم يقبل بي ويوم يرفضني، ويتحجّج بحُجج فارغة...

– لماذا لم تُحضر حليباً لـ «نور»؟

قاطعهما الصبي:

– أرجوكما، أكملا حديثكما في الداخل، أنا تعبان.

وأمسك بيد والده الذي عمل جاهداً كي ينهض. كان الأب يتكئ بكل ثقله على الصبي، ويميل بجسده عليه فلا يبدو منه إلا رأسه تخرج من تحت إبط الأب. سارا كجسد واحد بأربع أقدام... كان كلامٌ كثيرٌ يتطاير فوق رأس الصغير الذي لم يشأ أن يُدرك منه شيئاً. عندما هوى والده على الأريكة الوحيدة قرب المدخل، انسلّ إلى الغرفة المجاورة. كان هناك صفّ من الفرشات الملقاة إلى جانب بعضها بعضاً، تكوّمت عليها أجساد إخوته الغافية. أجسادٌ كلها صغيرة، لكنه بحث عن الأصغر. تأمّل الوجوه في العتمة، قبّل «نور» على خدّها، وارتمى على فرشة في عمق الرطوبة والعتمة، قرب الجدار.

***

# ...وتنقض غزلها

سئَمَت الصوت الوحيد في وحدتها؛ صوت التلفاز.

أغلقته، فانسكب الصمت في البيت مجدّداً.

جالتْ في أرجاء البيت الساكنة. أصخت السمع لعل الهاتف يرنّ، لعل أزيز صراصير يأتي من الخارج يؤنس ليلها، أو صوت ريحٍ تؤانسها بصفيرها، تستفز فيها الخوف أو ربما الغضب، أيّ شيء عدا الوحدة.

وقفتْ بأوّل الممرّ، تأمّلت الأبواب المغلقة.

جرّت خطاها التي أثقلتها ركامات الكدر والغمّ، بعد أن مضغت السنون قواها.

«مساء الخير.. كيف أمسيتِ؟

أحسدكِ، كيف تغمض جفونك الزهرية بحلول المساء، وعينيّ يعزّ عليهما النوم».

يهشّ الصمت في أذنها، كي تترك نبتة «المحكمة» غافية في أصيصها.

فتحتْ باب غرفة الأبناء، فأصدر الباب صوت صرير.

جلستْ على الأرض. أمسكت الباب وراحت تحرك مصراعه روحة وجيئة، فيتجدد صوت صريره. مكثت طويلاً على الأرض تحرك مصراع الباب يميناً ويساراً.

للباب لغةٌ ينطق بها، لم تجد صعوبة في فهمها بعد أن أصغتْ طويلاً. لغة تشبه لغة طفل جائع، أو ممغوص، أو لعله يشعر بالضجر.

انبثقتْ في أعماقها هبّات من راحة البال. شحنها حديث الباب بهمّة مفاجئة، فنهضتْ واتجهتْ نحو غرفتها. فتحت الخزانة وتناولتْ حقيبة صغيرة مركونة في أسفلها. وضعت

الحقيبة على السرير، وأخرجتْ محتوياتها: بضع كُرات من الصوف، صنّارات كثيرة اختارتْ منها اثنتين «نُمرة» خمسة وكُرة من الصوف الأخضر. تفحّصتْ خيط الصوف في الكُرة، فوجدته سميكاً أكثر مما توقعتْ، فاستبدلتْ بالصنارتين اثنتين من «نُمرة» سبعة.

يداها تمسكان الصنارتين وتحركانها بإيقاع منتظم، وخيط الصوف ينثني ويتلوّى غُرزة إثر أخرى. تتراكم الغُرز في نسيج أخضر بدأ يتدلّى من الصنارتين. غلبها النعاس، فنامت تحلم بغدٍ أقلّ مللاً ووحدة.

«صباح الخير، كيف أصبحتِ؟».

ألقت التحية ولم تتوقف طويلاً عند نبتة «المحكمة» التي تفتّحت أزهارها لنور الصباح. هرعت إلى الصالة وتناولت صنارتيها، وقبل أن تبدأ الحياكة، نظرت إلى أحد الرفوف أمامها، حيث صورة المرحوم زوجها، وصور أبنائها الثلاثة، كلّ مع عروسه، وتمتمت: «صباح الخير».

تنقّلت نظراتها بين النسيج الأخضر المعلّق بالصنارتين، وصورة زوجها. إنها بقايا الخيوط الخضراء التي حاكت منها «الكنزة» التي يرتديها في الصورة، «الكنزة» التي رفضت أن تعطيها لأحد بعد مماته، وأبقتها للذكرى.

مضى النهار وجزء من الليل، وهي منكبّة على صنارتيها، والنسيج يتدلى شِبراً، فشبرين، فثلاثة. أربعة أشبار ثم خمسة ، ثم غلبها النعاس، فنامت.

في اليوم التالي؛ ستة أشبار، سبعة، ثمانية، تسعة، ولم تحفل لطول النسيج الذي بدأ يتمدّد على الأرض، يطلع إلى الأعلى بألوان كثيرة، تبدأ بالأخضر.

في اليوم الثالث، حاكت بضعة سطور، لتكتشف أن كُرات الصوف كلّها قد نفدت. راحت تنظر إلى النسيج، وتهتز إلى الأمام والخلف، فيما تصعد هبّات من النكد والغمّ في صدرها.

وضعت النسيج جانباً، وراحت تفرك يداً بيد، وكل يدٍ تشدّ أصابع الأخرى، وما زال جذعها يهتز إلى الأمام والخلف، وكأنها تؤدي صلاة ما.

بحثتْ في أدراج الخزانة عن كُرات صوف، أو «شلايل» قديمة، وجدت بقايا من ألوان مختلفة، تحتفظ بها في «كيس» صغير. عقدت الخيط بالخيط، وواصلت حياكة الصوف، فهدأت نفسها.

الابن الذي زار أمه العجوز في ذلك اليوم، كي يأخذ أوراقاً تخصّه، فتح باب غرفته، فتناهى إلى أذنيه صوت صرير:

أعطني بعض الزيت كي أزيّت الباب، هذا الصوت مزعج.

فانبعث صوتها من الصالة:

اترك الباب كما هو، هل تفهم؟ اتركه فحسب.

ورغم أنه لم يفهم، ولم يكن لديه وقت ليفهم، إلا أنه آثر أن يترك الباب كما هو، واتجه إلى المطبخ مستعجلاً ليفتح الثلاجة ويتفقّد ما فيها: الأجبان، البيض، الخبز...

– «يمّة» هذه اللبنة فاسدة .

ألقى بها في سلة النفايات، وتابع:

– سأحضر لك لبنة . هل تحتاجين لأي شيء آخر؟

لكن العجوز لا تجيب.

عبر الابن الصالة، وأعاد السؤال وهو يتجه نحو الباب خارجاً:

– ناقص عليك إشي يُمّة؟

تردّدت قبل أن تنطق:

– أريد صوفاً.

– أنا لا أعرف أن أشتري هذه الأشياء. المهم، أتريدين طعاماً معيّناً؟

همست كمن يحدث نفسه: «صوف».

لم تكن نبتة «المحكمة» قد أغمضت جفونها بعد، عندما راحت العجوز تفرك يداً بيد، وكل يد تشدّ أصابع الأخرى، وجذعُها يهتزّ إلى الأمام والخلف. لقد نفد كل ما لديها من صوف، لم يبق لديها أيّ خيط. والليل سيهجم بعد قليل، والنوم سيهرب، وسياط الوحدة ستلسع قلبها.

بقيت على هذه الحالة إلى أن صدمتها أولى فلول الظلام، فصارت وتيرة اهتزازها إلى الأمام والخلف أسرع، وآلمتها يداها من فرك الواحدة بالأخرى. نظرت إلى صورة زوجها مستنجدة. حدّقت طويلاً فيها، ثم نهضت.

أضاءت مصابيح الكهرباء، واتجهت نحو غرفتها. فتحت الخزانة، وتناولت كنزة خضراء احتفظت بها لسنواتٍ خلت. قرّبتها من وجهها وشمّتها بعمق. ندت عنها تنهيدة. ضمّتها إلى صدرها بقوّة، وقبّلتها، وعادت تشمّها وتمسح دمعها بها. ثمّ راحت تنقض غزلها...

تنسلّ الخيوط، فتنسلّ معها حكايات ومشاعر من زمن مضى. تكوّمها في حجرها، وتلفُّها في كُرات. تربط طرف الخيط وتستأنف الحياكة، فتهدأ نفسها، يعود اللون الأخضر إلى نسيجها. تنظر إلى صورة زوجها لتشكره، لكنها تنتفض إذ تراه عارياً.

الابن الذي حضر أمس، جاء اليوم مبكّراً. وضع علبة اللبنة وبضع أرغفة على الطاولة في الصالة. العجوز لم تنظر نحوه، ولم تتوقف عن الحياكة. اعتذر لوالدته لأنه في عجلة من أمره، وهمّ بالخروج، لكنه توقف فجأة تعتريه الدهشة. بالأمس لم يفهم لماذا لم تدعه العجوز يُزيّت باب غرفته. أما الآن فهو لا يفهم ما الذي حلّ بالصُّوَر؟! أربع صُوَر قائمة على الرفّ، أشاحت بوجهها نحو الحائط، وكل ما يتراءى منها هو الإطارات من الخلف!

❊❊❊

# تبتسمُ بدلال...

لن تُفسدَ فرحتها، ولن تشغلَ بالها بالتفكير في حُجّة تبرّر تأخُّرها في العودة إلى المنزل. سوف تختلق حُجّة، عندما تسير وحيدة في طريق العودة، وهي واثقة تماماً من براعتها في ذلك.

حدّثته عن عملها وكيف استطاعت أن تستغفل مراقب العُمّال، عندما راح يحصي ما أنتجته ماكينتها هذا اليوم، فأخذ يفرّغ السلّة الخاصة بها ويعُدّ القمصان التي حاكت عراويها. أخبرته كيف أقنعت المراقب أن تقوم هي بالعدّ

بدلاً منه، وكيف شاغلته وراحت تمسك بكُمّ القميص وتعدّه واحداً، فيصير القميص اثنان.

ضحكا كثيراً، فيما هما يشربان الشاي، ويأكلان الشطائر. سألته: «ألم تجد عملاً بعد؟»، فأخبرها إنه موعود بعمل في بداية الشهر القادم. وراح يحدّثها عن أحلامه في العمل والتقدم لخطبتها، وهي تبتسم بدلال.

نادى النادل، وبحركة لا تخلو من الاستعراض، أخرج محفظة من جيب بنطاله الخلفيّ، تناول منها خمسة دنانير ووضعها في يد النادل، ولم يكدّر صفو تلك اللحظة إلا رجع كلمات أمه، وهو يستلّ منها الدنانير الخمسة بالقوّة، وهي تنهاه عن أخذها وتُقسم إن هذه الخمسة لتسديد «فاتورة» المياه.

مشى معها حتى بداية الشارع المؤدي إلى منزلها. ولما صارت وحدها، تخيّلت منظر والدتها تقف واضعة يديها على جانبي خصرها السمين، وصوتها «يلعلع»: «أين كنتِ؟»، وتبدأ بشتم تربيتها. وبالطبع فإن صوت الأم سيستفزّ الأب، فيأتي فارعاً ويوبّخها، بدوره، لأنها تأخرت.

قبل أن تصل باب المنزل ببضع خطوات، كانت قد اختلقت حُجّة مبتكرة لتأخُّرها. أخذت نفساً عميقاً، وفتحت الباب.

هرعت أمها نحوها قائلة: «حبيبتي يُمّة، يرضى عليكِ، لقد تأخرتِ».

لجَمَها أسلوب أمّها الودود. همّت بالكلام، فتلعثمت، لما رأت والدها يقف بباب غرفته مبتسماً، وخالتها تُقبِل نحوها تقبّلها، وتستعجلها:

– أسرعي، وامشطي شعرك، وتزيّني، لتسلّمي على الجماعة.

– الجماعة؟!

– المرأة تريد أن تخطب لابنها، موظف راتبه ما شاء الله، ومعها قريباتها.

أسرعت الفتاة إلى غرفتها، حيث أحاطت بها أخواتها يمشطنها ويزيّنها. تنفست الصعداء، وراحت تتخيل نفسها عروساً بكامل زينتها، تجلس قرب عريسها الموظف... وتبتسم بدلال.

***

# عفاريت مقيمة

ذات خميس... ذات أيار:

نهاراً خرجت كل العفاريت من قماقمها، جنّ جنونها. عفاريت الضجيج، والصراخ، لا أعرف كيف ينغُلُ الشارع فجأة بهم، أولاد كثيرون، لدرجة أنك تحسب الشارع قد تقيأهم، وتبنّاهم .

عفريت صوت ارتطام الكرة، يضرب طبلة أذني الوحيدة (أذني الثانية انعطب السمع فيها منذ زمن بعيد). وعفريت محرك سيارة، تنطلق بسرعة صاروخ، تسمع هدير محركها، وزعيق الدَّوْس الفجائي على مكابحها.

أما ليلاً، فكان يزدحم فضاء البيت بعفاريت أخرى: عفاريت تخرج من أفواههم؛ ضحكاً مشوباً بنبرات الرعونة، لشباب مزهوّين بأهوائهم، والـ «أنا» عندهم بحجم العالم. يحلو لهم السهر قرب نافذتي، وبمباركة «أغبياء الأمور»، ولا أعرف هل هم بكامل قواهم العقلية، أم أن شيئاً ما أذهب العقل!

راحت العفاريت تنساب في بيتي، تهبط من السقف، تخرج من الأرض، لا يمنعها جدار، ولا يردّها سِتار. استوطنت بيتي، وكانت هي من قرّر أنّ عليّ الرحيل، عليّ السلام!!

وطلع الصُّبح، وأنا صامدة لم تتمكن مني أيّ جلطة دموية.

## الجمعة:

جرى البحث على قدمين، وعلى عجلات، وعلى صفحات «الوسيط»، وكنتُ محظوظة إذ وجدتُ ضالّتي، شُقّة في حي «مبربح» غير مكتظّ، مهما زَعَقَ أولاد الجيران لا يصلك إلا أمواج صوتٍ أهلكتها المسافة.

بينما كنت أحزم أمتعتي، تذكّرتُ جدّة صديقٍ لي، كان يتحدّث عن مقتنياتها بدُعابة، فهي، مثلاً، لا ترمي «مرطبانات» رُبّ البندورة والمُربّى التي نفدت محتوياتها، بل تنظفها و«تصمُدها» في خزانات المطبخ وفي صناديق على «السِدّة»، وتجيبه إذ

يسألها: «لمَ كُلّ هذه (الكراكيب)؟»، فتقول: «بتلزم يا جدّة».

وجدت من (الكراكيب) أشياء أقامت معي عاماً بعد عام، ولم تعد تلزم.

البيتُ مثل الجسد. فيه أشياء ينبغي ألّا تبقى، وبعض مقتنياتنا، لا ينبغي أن تربطنا بها علاقة أكثر من علاقة الجسد بما يطرحه من الأظافر والشعر الزائد.

السبت:

عند الساعة الثامنة صباحاً، كانت شاحنة شركة الترحيل تقف ببابي، الذي لن يعود بابي بعد ساعات.

عندما شاهدتُ الطريقة التي يغلِّف بها العمّال قطع الأثاث، حمدتُ الله أنْ ليس بين مقتنياتي قطع كريستال حسّاسة، أو خشب زان ولا سنديان، وأن «عفشي» الذي كتب عليه الرحيل هَرِم من الإقامة معي، ولم يعد يبالي بأيدي العمّال، التي ما إن تشيحَ بنظرك، حتى يغيب حرصُها، فترتطم قطع الأثاث بالجدران، وتهوي الأشياء من أيديهم في الشاحنة.

جهدنا، أنا وزوجي، كي يكون رحيلاً لائقاً من شركة تدّعي الخِبْرة.

يا أَلله! الكُلّ خبير في كل شيء، ومع ذلك فإنك نادراً ما تجد من لا يدّعي.

**الأحد:**

لماذا فقدتُ إيجابيّتي التي هي رأسمالي الذي يجعل حياتي مُفرحة؟ كيف أصير واحدةً من جيوشِ الشكّائين البكّائين الذين أمقُتُهم، وأتحاشى طاقتهم السلبيّة؟ هل يمكن أن أُشفى ممّا أنا عليه، وأعودُ أنا التي أَعرِف وأُحبّ؟

يا أَلله! ما أروع الإحساس بالهدوء. كنتُ قد نسيته تماماً. للهدوء مذاقٌ يجعل السكينة تخيّم على النفس. ومن يدري، قد أشعر بالسلام ذات يوم. يا إلهي كم جاء هذا الرحيل متأخراً. خمس سنوات نقضت من أعمدة نفسي الكثير. لماذا يجبُن الإنسان أمام قرارات تريحُه، ولماذا لا نقوّي قلوبنا إلا حين نُحِسّ أننا صرنا تحت «المفرمة»؟! في حياتنا أمور لا تحتمل الحلول التوفيقية.

**الاثنين:**

هواءٌ باردٌ منعش، ربوةٌ يكثر فيها الزيتون، بيتٌ لا تحتاج فيه إلى مَرْوَحَة. ليلٌ هادئ شوّش سكينته نوبات سُعال وعُطاس ابني، التي استمرّت حتى الفجر، في سابقةٍ غريبةٍ، لم تنفع معها

المُسكِّنات وأدوية السُّعال. كانت عيناه محمرّة، وأجفانُهُ منتفِخةً قليلاً. وفطنّا إلى أشجار الزيتون قرب نافذته، كانت حساسيّة الزيتون ، والتي لم تصادفه في سنواته الاثنتي عشرة السابقة.

**الثلاثاء:**

زوجي يطلب قوارير المياه على الهاتف، العنوان هو شارع كذا عمارة...، وأنا أثرثر قربه: «أضف إلى العنوان، قل لهم (بيت أبو عمر) ». أعاد زوجي العنوان على مسامع موظف شركة المياه، ولم يكترث بملاحظتي. كرّرت بعصبية: «قل بيت (أبو عمر)، كُن دقيقاً في الوصف ». وضع سمّاعة الهاتف، وقال ضاحكاً: «على مهلك، لماذا غضبت؟ لم يمضِ على سكننا يومان، مَنْ يعرف (أبو عمر)؟ حتى جارنا في الشقة المقابلة لنا، ممكن أن تمضي سنوات دون أن يعرف اسمي أو كُنيتي ».

ضحكتُ من سذاجتي.

**الأربعاء:**

كي تغتسل نفسك مما علق بها من ألم أو توتّر أو قلق، لا تكفي شلّالات الهدوء النازلة فوقها. فالموضوع ليس «كبسة زِرّ»، لعلّه الزمن، هو الكفيل بزيادة فاعلية تلك الشلّالات.

هذا ليس الأربعاء الأوّل لرحيلي، هو الخامس أو السادس، والعفاريت التي خلّفتها ورائي، يبدو أن بعضها يقيم في رأسي.

❊❊❊

# الفهرس


– كذب أبيض ..... 5

– العتمة ..... 11

– الرجوع الأخير ..... 21

– المكوى ..... 29

– بانتظار الخميس ..... 35

– مسارح الظنون ..... 43

– قاب نعلين... أو أدنى ..... 49

– تغيير ..... 57

– المضبوع ..... 63

– بضع رشفات تكفي ..... 75
– في القاع ..... 79
– ...وتنقض غزلها ..... 89
– تبتسم بدلال ..... 97
– عفاريت مقيمة ..... 101